مذكرات امرأة وحيدة

obeikan.com

اسم الكتاب: مذكرات امرأة وحيدة

التأليف: نيلوفر

موضوع الكتاب: مجموعة قصصية

عدد الصفحات: 159 صفحة

عدد الملازم: 10 ملازم

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 27981 / 2015

الترقيم الدولي: ISBN : 978 - 977 - 278 - 523 - 5

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

darelbasheer@hotmail.com

darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01012355714 - 01152806533

1436 هـ
2016م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع ، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من :

دار البشير للثقافة والعلوم

obeikan.com

مذكرات امرأة وحيدة

نيلوفر

دار البشير
للثقافة والعلوم

obeikan.com

obeikan.com

إهداء..

إلى تلك الروح الرقيقة التي أرهقتها...
ضغوطات الحياة،
كلمات الفارغين،
متخبطات المنظرين،
ولا تزال تتحسس طريقها الصحيح نحو الاستقرار.

obeikan.com

مذكرات امرأة وحيدة

مقدمة..

لا يمكنني تقلد دور يستهوي كثيرًا من الناس على اختلاف طبقاتهم وثقافاتهم وعقلياتهم؛ لأشير نحو الصواب في قضية يختلط فيها العقل والمنطق بالعاطفة، والحق بالواجب، والضعف بالمسؤولية.

فقد تكون رؤيتي لا تتناسب مع ظروفك الخاصة، وقد تتعارض مع طبيعتك، أو أولوياتك، لكني سأذكِّرك أن هناك لحظة ينبغي فيها اتخاذ قرار حاسم لتدارك ما يمكن حدوثه لاحقًا.

سأقول.. لا تخدعنك الحياة، والأشخاص، والظروف، فجميعها قابلة للتغير أو الاختفاء فجأة، وعليك أن تتعلمي مهارة القيام بمسؤولياتك كما ينبغي.

الثانية من ظهر الخميس للعاشر من يوليو(..)، لا أزال أتمادى في النوم؛ لعلي أحصل في الدقائق الإضافية على بعض الراحة دون جدوى، الهاتف يرن بنغمات متقطعة لينبئ عن وجود رسائل متواترة لأحد برامج التواصل التي انتشرت كالنار في الهشيم مؤخرًا، وأصبحت طريقة جديدة للوصول إلى الآخرين في عقر دارهم، بل وحتى معرفة إن كانوا يمسكون بهواتفهم

النقالة أم لا، لا أدري إلى أي مدى سوف تصل بنا التكنولوجيا خلال عامين أو ثلاثة أخرى. وعلى غير العادة لا أشعر بأدنى فضول يحملني لمعرفة المرسل، وأدفن رأسي بين الوسائد علني أعاود النوم.

إنها الثانية والنصف وسبع دقائق..

ما زلت أتجاهل نغمات النداء، وأتقلب باضطراب في سريري الذي أشعر أنه بات يحفظ مزاجي كما يحفظ تفاصيلي، بينما قطعت محاولاتي الفاشلة رنات الهاتف منبئة عن اتصال، مددت يدي في يأس لأتناوله وفي مخيلتي تدور صور الوجوه التقليدية التي غالبًا ما يردني منها اتصال في مثل هذا الوقت. كل شيء أصبح مكررًا، كل شيء بات في عيني يفيض سأمًا، وفتحت زر الاتصال؛ لأجيب..

إنها هند، إحدى صديقات الصبا التي أعادتها لي الأقدار بعدما وجدتها مصادفة في حفلة زفاف إحدى زميلات عملي الأخير؛ حيث أعمل في قسم إدارة الموارد البشرية بإحدى الشركات الخاصة لأقطع سديم وحدتي، وأستثمر معلوماتي الدراسية في العمل، على الأقل أشعر أنها لم تذهب هباء، وأني أقدم شيئًا مفيدًا للمجتمع الذي أعيش فيه من جهتي. هاهي تذكرني بلقاء اليوم في محاضرة حول التنمية البشرية، لقد ذكرته لي منذ مدة، وشعرت ببعض الحماس لكسر الروتين والالتقاء ببعض صديقاتي

القديمات؛ حيث أخبرتني أنها علمت باحتمال حضور بعضهن ممن مضت سنوات طويلة على اختفائهن في سراديب الحياة المليئة بالواجبات والمسؤوليات، وبالنسبة لي فأنا أشعر بعض الفضول لأرى ما فعلت بهن الأيام والسنوات. ترى من منا أكثر سعادة؟، أو على الأقل تمازجًا مع الواقع وتقبلًا لإملاءات الحياة؟.

- مرحبًا هند.

- مرحبًا.. أما زلت نائمة أيتها الكسولة؟

- أخبريني أي شيء يمكنني فعله سوى النوم في يوم كهذا!.

- وهل نسيت موعدنا الذي أخبرتك به مرارًا؟

- لم أنس. ولكن مازال في الوقت متسع.

- حسنًا. أردت فقط أن أتأكد من حضورك؛ حيث لا أحب الجلوس وحدي للاستماع إلى محاضرة مملة.

- يالك من فتاة عجيبة!. تتصلين بي لتؤكدي علي حضور محاضرة لا ترغبين سماعها!.

- وكأنك لا تعلمين أنها مجرد فرصة للقاء والتعارف بالأخريات.. انهضي هيا ولا تجادليني، فليس أمامك سوى ثلاث ساعات أعلم أنها لا تكفي الأميرة أمل.

– حسنًا يا أميرة هند. لم يعد في عيني قطرة نوم بعد الاستماع إلى محاضرتك الهاتفية.

– هذا جيد. أراك في الخامسة، لا تتأخري.

– حسنًا.

– إلى اللقاء.

– إلى اللقاء.

أغلقت هاتفي ووضعته جانبًا، ثم نهضت بتثاقل وأنا أنظر صوب النافذة التي تسللت منها أشعة شمس قوية، وتساءلت في نفسي كيف سيكون ذلك اللقاء.

***

أمام المرآة تفحصت ملامحي بطريقة أشبه بما تؤديه ممثلة تجسد دور امرأة فقدت رونقها وباتت تفتش عنه بإحباط في صفحة مرآتها. كان وجهي شاحبًا وعيناي دونما بريق، أما شعري فيحتاج بصورة عاجلة إلى صبغ يغطي تلك الشعرات البيضاء التي بزغت في مقدمته لتذكرني بعدد السنين التي ضاعت من عمري. أعرضت بوجهي عن المرآة وكأنني أتجاهل شخصًا بغيضًا لا أود رؤيته. وبدأت في اتخاذ اللازم لتغيير ذلك المظهر المزري استعدادًا للقاء.

obeikan.com

لا أعلم حقًّا ما الذي يجعلنا نبغض أشياء فينا يفترض أن نحبها كما أحببنا سواها!، ولماذا نصطف مع الآخرين في نظرتنا إليها وحكمنا عليها، فنحب نضارتنا مثلًا ونكره شحوبنا، نحب قوتنا ونكره ضعفنا؛ حيث لا ينبغي أن نحب شطرًا ونكره شطرًا، فنحن بحاجة لمحبة عيوبنا كما نحب مزايانا، وذلك يمنحنا نزعة التسامح مع عيوب الآخرين فنتقبل وجودهم دون أن نمارس في حقهم أي نوع من الإقصاء أو الازدراء؛ لأننا ندرك أن كثيرًا من عيوبنا أو عيوبهم ليست بأيدينا، وأول النصائح التي سيلقيها عليك خبير تنمية بشرية أو حتى أخصائي نفسي أن تحب نفسك لتعيش متوازنًا، وليست هذه الحلقة المفقودة التي نعثر عليها بفضله فتعود على إثرها حياتنا ناجحة وسعيدة، فنحن قادرون على محبة أنفسنا وأشكالنا وصفاتنا بكل تفاصيلها الدقيقة، لكن من حولنا يدفعوننا إلى كراهيتها عندما يبدؤون في تصنيفنا، وخلع الألقاب الجارحة علينا، الاشمئزاز منا، أو التبرم، أو حتى الهرب. فنحن إذًا لا نملك سلطة تامة على أنفسنا، بل يملك نصفها الآخرون الذين يلزمنا أخذ آرائهم ومواقفهم منا في الاعتبار حفاظًا على راحتنا، ومصالحنا، وعلاقاتنا جيدة معهم، والاستفادة منها في تقييم أنفسنا أحيانًا. وهذه معادلة صعبة أثق أن الكثير يعارضها بقوة، لكنها تحمل شيئًا من الحقيقة في اعتقادي.

***

الساعة الرابعة عصرًا..

بينما أكاد أختفي بين الثياب المترامية في كل مكان في الحجرة بحثًا عن شيء يلائمني.. يرن هاتفي مجددًا ليحمل لي رسائل من هند تنبهني إلى مضي الوقت ودنو الموعد، لا أدري ما الذي أصابها لتهتم به كل هذا الاهتمام. إنها تثير توتري.

ألقيت بهاتفي على السرير، وتابعت بحثي الممل حتى وصلت إلى بذلة ملائمة أرتديتها وبدوت فيها وكأنني معلمة صارمة لمادة ثقيلة.

لم يعد هناك متسع من الوقت لأبحث وأجرب المزيد، لابد من تسريح شعري بطريقة مختلفة عما اعتدت عليه دائمًا، ولكن شعري القصير لا يمنحني خيارات عديدة لتسريحه؛ حيث لم أعد أرى في طوله معنى، بل أشعر وكأنه أنشوطه تخنقني وتأخذ من وقتي الكثير للعناية به خاصة بعدما بهت لونه وتسلل إليه الجفاف؛ فاتخذت قرارًا بقص ثلثيه لأنهي تلك المأساة.

حسنًا. ربما وضع طوق صغير لرفع مقدمته يبدو جيدًا؛ حيث لا أحب اللجوء إلى أساليب معقدة في تصفيفه.

***

الرابعة وخمس وثلاثون دقيقة..

لم يعد هناك متسع من الوقت.. لابد أن أختار بعض الزينة على وجهي لأخفي شحوبه، سأختار ألوانًا طبيعية فلست بمزاج جيد لأضع ألوانًا زاهية، أحاول أن أبدو على طبيعتي، ربما لأني ما زلت أراهن على تحدي الزمن وأريد أن أبدو كما عُرفت دائمًا. فالمبالغة في الزينة ليست سوى محاولة مفضوحة لإخفاء بصماته على ملامحنا، وأنا مصرة أن أتحدى هذا الزمن الذي يجتهد في قهري والعبث بي.

الخامسة إلا الربع..

في الطريق إلى موقع اللقاء.. أشعر ببعض التوتر، هند توقفت عن إرسال رسائلها لتذكيري بضرورة الإسراع كي نقضي أطول وقت ممكن معًا، أحاول الاتصال بها ولكن هاتفها مغلق!

أشعر بالانزعاج، لا أحب المفاجآت الكريهة، لكني ما زلت أحاول التفكير بأعذار ليست سيئة. لابد أن بطارية هاتفها قد نفدت بينما لا تزال منشغلة بإعداد نفسها. فهي على عكسي تمامًا تعتني بأدق التفاصيل، ولن أخمن إن قلت إنها قد تكون ابتاعت ثيابًا خاصة لهذه المناسبة وإن لم تكن بتلك الأهمية لديها، إنها مغرمة بجديد الموضة وربما تجد في هذا الأمر سبيلًا للهروب بطريقتها الخاصة من متاعبها.

obeikan.com

أخذت أقلب في رأسي وجوه الصديقات التي يفترض أن ألتقي بهن هذا المساء، وأنا أحاول تخيل مدى التغيرات التي حلت بهن وفقًا لطبيعة كل واحدة منهن، حيث يقال إن الملامح تتغير نسبيًّا تبعًا لدرجة تفاؤل أو تشاؤم صاحبها، فالبشاشة والابتسام تحافظ على نضارة الوجه، أما العبوس والحزن يزيد عدد التجاعيد ويسرع من علامات تقدم السن.

ووفقًا لهذه النظرية فباعتقادي أن «سماح» لا تزال تبدو شابة ببشرة نضرة، وربما ظهرت حول عيني «مريم» بعض التجاعيد أو الهالات، أما «دينا» فقد تبدو أقل نضارة، ولكن دون تجاعيد.. وسخرت من نفسي وأنا أفكر على هذا النحو بدلًا من التفكير فيما سيكون عليه مظهري عند الوصول بعدما تفصدت عرقًا من حر الشمس التي أوشكت على المغيب إلا أنها لا تزال تحتفظ بحرارتها، وهكذا هو حالي دائمًا في كل مرة أضطر فيها للخروج نهارًا في أجواء هذه المدينة التي تحتفظ بحرارة طقسها معظم أيام العام، لا أكاد أصل لوجهتي إلا وقد تبللت خصلات شعري والتصقت بوجهي، وتحول كريم الأساس إلى «لوشن» من شدة ميوعته واختلاطه بعرق وجهي. وتناولت المنديل لأحاول تجفيفه قدر الإمكان إلى أن أصل لموقع اللقاء فأحاول إصلاح ما يمكن إصلاحه بسرعة قبل أن تراني إحداهن بهذه الهيئة. فما زلت حتى اليوم أتحاشى تصفيف شعري أو وضع المكياج أمام الآخرين، والحقيقة أنني لا أجد تفسيرًا واضحًا لهذا الأمر، قد أكون خجولة أكثر من اللازم!

وطويت بقية الطريق في استراق النظر تارة بعد أخرى عبر نافذة السيارة؛ لأرى تلك التغيرات التي طرأت على ملامح المدينة، وكأنني آتية إليها من مكان بعيد، أو عائدة من سفر طويل، ففي كل مرة تتبدل معالمها ومبانيها وطرقاتها وكأنها تعاني هي الأخرى توترًا عميقًا يدفعها لهذه التغيرات المستمرة في مظهرها؛ هربًا من الروتين. فطريق عملي قصير جدًّا، ولا يمكنني من خلاله معرفة ما يمكن أن يحل بوجه المدينة التي أقطنها كغريب.

الخامسة وثلاث دقائق..

وصلت إلى المكان المطلوب، وترجلت من السيارة بعدما طلبت من السائق أن يتأكد من العنوان، أظن أنني اكتسبت هذه العادة من والدتي فهي لم تثق يومًا بأحد، وفي كل مرة كنا نذهب فيها إلى مكان ما نضطر للدوران حوله مرارًا والسؤال عنه جيدًا قبل دخوله؛ تجنبًا لما لا يحمد عقباه، وإن كنت لم أقطع بعد بتلك التوقعات التي تدور في رأسها حول هذا الشأن!

دلفت من خلال بوابة كبيرة وسرت في طريق من الرخام الفاخر مستعرضة بعض اللوحات الكبيرة المثبتة على الجدران وبعض أشجار الظل الجميلة التي تزين الممرات بطريقة هندسية بارعة.

كان كل شيء يبدو منظمًا وجميلًا إلا داخلي، فقد كنت أشعر باضطراب الزيارة الأولى إن صح التعبير، وهو شعور مربك ينتابني كلما زرت مكانًا

لأول مرة، وبخاصة حين أكون وحدي؛ حيث أضطر لاكتشاف كل شيء قبل أن أجد أحدًا ممن أعرفهم لأقضي معه بقية الوقت فأشعر بالتحسن والارتياح. وأخذت أعزز معنوياتي ببعض الرسائل الداخلية ليبدو الأمر عاديًّا يتعرض إليه الجميع؛ حتى أبصرت سيدات يقفن بصورة عشوائية في بهو متسع ويتبادلن الأحاديث فتحدث أصواتهن ضجة لا أحبها، بينما تظهر في إحدى زواياه نافذة أنيقة بشرفة خارجية يمكن ابتياع المشروبات وبعض الأطعمة الخفيفة من خلالها ريثما تبدأ المحاضرة.

حافظت على هدوئي كي لا ألفت النظر إلي، فغالبًا من تمر وحدها وسط تجمعات نسائية كهذه لا تنجو من أن تتبعها الأنظار لتحولها بعد قليل إلى مادة للتعليقات والتحليل الفارغ. وسخرت في نفسي وأنا أقول حتى في مجتمع المثقفات لا يمكن ألا تحل النميمة والأحاديث السخيفة ضيفًا معتمدًا. هذا ونحن في انتظار محاضرة تنموية لتطوير الذات ورفع مستوى الوعي! يبدو أن النقص لن يبارح عقل المرأة أبدًا بطريقة أو بأخرى، حتى وإن كان يحل في ثوب المنطق!

وأخذت طريقي نحو دورات المياه حيث يمكنني الوقوف أمام مرآة كبيرة وتفقد مظهري قبل الدخول إلى قاعة المحاضرة.

تناولت هاتفي وجربت الاتصال بهند لكن هاتفها ما زال مغلقًا.. بدأ يساورني القلق، وسحبت من حقيبتي بعض الزينة؛ لتعديل ما أفسده حر الشمس في الطريق، ثم ألقيت نظرة أخيرة على مظهري قبل أن أتابع سيري نحو القاعة.

الخامسة والنصف..

كان الجميع يسارعن للدخول، وقد بدأت المدربة حديثها بالتساؤل عن البقية، ثم التعليق السريع على تساؤلات بعض الحاضرات حول مواضيع جانبية ستظل دائمًا محل خلاف إلا أن كثيرًا من النساء لا يعتريهن ملل في إعادة طرح الأسئلة المتكررة التي لا تصل إلى إجابة قاطعة في كل مرة.

ألقيت نظرة سريعة على قاعة المحاضرة، ثم اخترت أحد المقاعد القريبة نسبيًّا من مدخلها ليسهل علي الخروج سريعًا متى أردت. وما إن أخذت مكاني حتى عدت لمحاولة الاتصال بهند وأحبطني هاتفها الذي ما زال مغلقًا. شعرت بالضيق وبدأت الهواجس تدور في رأسي حولها، فقد مضى وقت طويل ولم يعد هاتفها للعمل، يبدو أن في الأمر شيئًا، أغمضت عيني وسألت الله أن يكون المانع خيرًا، وقررت في نفسي أن أستمع إلى شطر من المحاضرة ثم أغادر المكان عائدة إلى المنزل، فعلى الأرجح أنني لن أستطيع لقاء بقية الزميلات؛ حيث كانت هند ستتولى أمر تذكيري بهن بعد هذا الزمن الطويل، كما أنني لا أشعر بالارتياح بشأن انقطاع الاتصال بها حتى الآن، وهذا لن يجعلني في مزاج جيد للتواصل مع الأخريات أو استرجاع الذكريات.

بدأت المحاضِرة في إلقاء موضوعها الذي لم يبد لي مشوقًا كعنوانه، فقد كان يدور حول إدارة الانفعالات والتعامل الكفء مع الشخصيات

السلبية، وحاولت الاستماع باهتمام لعلي أجد فيما تقوله شيئًا يستحق العناية فلم أجد جديدًا، وكنت أحيانًا أتفحص وجوه الحاضرات وأقرأ فيها الكثير من الدهشة والانبهار وحتى البلاهة فأزداد تعجبًا من هذا الإنسان الذي تلقى عليه قوانين الحياة التي يدركها بفطرته بنكهة مختلفة فيظنها نظرية جديدة واكتشافًا عظيمًا. أعتقد أننا نكون أحيانًا بحاجة إلى بعض البلاهة؛ لتبدو إلينا بعض الأمور العادية مدهشة فنشعر بالتغيير !

لا أدري أي شيء ساعدني على احتمال ساعتين من الحديث المستهلك، قد يكون تحدٍّ في نفسي بأن أظل أفند في صمت ما تلقيه علينا تلك المرأة؛ لأؤكد أن تقييمي المسبق للمحاضرة كان صوابًا، وأن قراءتي لما يحدث صحيحة تمامًا، وربما كنت على أمل أن أجد في حديثها شيئًا جديدًا يفيدني أو يزيد من معلوماتي، وربما ظننت أنني إن تحاملت على نفسي وبقيت ستطل في لحظة أو أخرى هند لتخبرني عن أمر هاتفها وما حدث معها. لكن المحاضرة انتهت دون أن تأتي أو تتصل أو تجيب!

تناولت حقيبتي وانسحبت خارجًا لأرى حديقة في مقابل القاعة قد شرعت أبوابها، وبدت خلالها بعض النساء يجلسن حول طاولاتها البيضاء الأنيقة، بينما تضيء بين الأشجار قناديل جميلة فتضفي جوًّا رائقًا يغري بقضاء بعض الوقت في الاستمتاع به، وهكذا قادتني قدمي لدخول الحديقة والجلوس إلى طاولة قريبة تكشف عن جزء من قاعة المحاضرة ريثما يصل

السائق ليأخذني إلى المنزل. بدا الجو جميلًا، ونسمات عليلة تمر بالمكان فتعبق رائحة الفل المزروع في جنباته. ما أجمل الطبيعة!

كنت أهم بالنهوض لطلب بعض العصير أو الشاي لأرطب به فمي، حيث لم أتناول شيئًا منذ استيقظت سوى القليل من القهوة بالحليب على عجل ولم أتمكن من إكمالها، حين وقع بصري على «منال» التي كانت تجلس في الداخل بهدوء وإنصات، وكأنما تتخذ صفة مراقب أو ناقد يتفحص كل كلمة تخرج من شفتي المحاضرة، التي كانت تتلقى على هامش المحاضرة العديد من أسئلة الحاضرات اللاتي بدا عليهن الاستعداد الجيد لمثل تلك الفرصة بحيث لم يتطلب الأمر سوى إبراز قصاصات أسئلتهن المعدة مسبقًا، أو تلك التي تعالت بها أصواتهن في جنبات القاعة.

كعادتي لم أصدق أن تكون هي، فدائمًا ما أظن أنني لا أجيد التعرف على ملامح أولئك الذين حجبتهم السنوات عن عيني وإن كانت تشبههم، لكنها بالذات لم تبدُ مختلفة، وكأن الزمن توقف بها، قد تكون اكتسبت بعض الكيلوات، لكنها كما هي، بذات السمت والهيئة، وبنفس طريقة تصفيف شعرها المعتادة؛ حيث ربطت شعرها الناعم ذا اللون الكستنائي إلى الخلف بلفافة حمراء وصففت غرتها إلى الجانب الأيمن مع خصلة بمحاذاة خدها الأيسر، وكأنما لا تزال على مقاعد الدراسة تنصت إلى معلمة الصف التي طالما ظنت في هدوئها الواضح بلادة وشرودًا، فإذا

بها تفاجأ بدرجاتها الكاملة التي منحت معلماتها خبرة إضافية في تقييم الاستجابة لدى الطالبات.

كانت فتاة يانعة كالوردة، باسمة كإشراقة صباح، حالمة كنجمة لامعة في كبد السماء، قبل أن يتوفى والدها ويذرها أكثر وحدة مع والدتها التي حولتها قسوة الحياة إلى امرأة جامدة المشاعر باردة الانفعالات، فقد تزوج أخويها الذكور مبكرًا، فسافر أحدهما إلى الخارج في بعثة دراسية، واستقر الآخر في منزل خاص بعيدًا عن العائلة، ثم تبعتهما شقيقتها الوحيدة لتستقل بحياتها الخاصة مع زوجها قبل رحيل والدها بعام واحد. هذا كل ما أذكره عن تفاصيل حياة هذه الصديقة؛ حيث لم أكن أهتم بمعرفة الكثير عن حياة أفراد أسر صديقاتي مالم يذكرن لي شيئًا عنها.

راقبتها وهي تهرع إلي بخطوات سريعة حالما رأتني حين كانت تعبر بين المقاعد إلى خارج القاعة، وقد اتسعت حدقتاها، ولمع فيهما بريق الدهشة والفرح، وأخذت تتجاوز أجساد الحاضرات اللاتي سرعان ما تركن مقاعدهن وتحلقن حول المحاضرة لمواصلة حديث جانبي حماسي، وبدا لي ثوبها الأزرق الداكن بأزراره الذهبية أقرب إلى أزياء الستينيات لدرجة أنه ذكرني بأحد فساتين والدتي حينما كانت لا تزال شابة، فقد ظلت تحتفظ به كذكرى حتى كبرنا وكبرت معي رغبتي في ارتدائه، وأخذت ألح عليها مرارًا قبل أن تأخذه إلى الخياط؛ ليقوم بتعديله كي يلائم جسدي النحيل

آنذاك، ولكن ثوب أمي كان أجمل، وكانت خامة نسيجه فاخرة بحيث لم أتمكن حتى اليوم من العثور على مثيلها، بينما كان ثوب «منال» يبدو محبوكًا من الحرير والقطن الذي يلائم هذا الفصل الحار من السنة، كان جميلًا وباردًا ويناسبها جدًّا.

ارتسمت على فمي ابتسامة لا إرادية وأنا أراها تقترب مني، فإذا بنفس الملامح الراسخة في ذاكرتي.. وجهها البريء، بشرتها الحنطية الناعمة، حاجباها الرقيقان، وعيناها اللوزيتان الشبيهتان بلون العسل تشوبهما مسحة أسى يغلفها الكبرياء.

بدت لي كقصة من قصص الحياة لإنسان أرغمته أمواجها على الخوض في غمارها ولو لم يبد مستعدًّا لشيء كهذا. في النهاية من يصل منا للشاطئ يلزمه التخفي تحت قناع القوة والانتصار، وإخفاء الضرر الذي نال من جسده وروحه ليبدو البطل الأجدر بالتبجيل!

أمسكت يدي فور وصولها وضغطتها بقوة وهي تقبلني معبرة عن أشواقها بعد طول غياب؛ حيث لم أرها منذ ما يزيد عن عشر سنين، لكنني شعرت في قبضتها ألم مستغيث يتعالى على أوجاعه ويلوذ بالصبر. ابتسمت لها ورحبت بها وأنا أسألها عن سر اختفائها، وأتساءل في نفسي عن سر عذابها الذي أخفق في الاستتار عن شعوري، وشكرت القدر الذي جمعني بها في تلك الساعة، فعلى الأقل لن أعود لمنزلي خالية الوفاض.

منال.. تلك الفتاة المفعمة بالأمل، الغامضة أحيانًا رغم تلقائيتها، هاهي اليوم أمامي امرأة ناضجة، ربما بلغت الأربعين. وكأي أنثى يسري في دمها الفضول حاولت استراق نظرة خاطفة إلى أصابعها؛ لأرى إن كانت قد تزوجت أم أنها لا تزال مثلي والقلة الباقية على مرفأ الانتظار. وأجاب عن سؤالي الصامت خاتم زواج بسيط يلف بنصرها الأيسر أشرت إليه بنظرة ذات مغزى وأنا أداعبها؛ محاولة إبداء عتبي عن عدم حصولي على دعوة لحضور ذلك الزواج.

ابتسمت وهي تكبح عينيها من السفر بعيدًا نحو الأفق في رحلة ذكريات لا استعداد للمضي بها، وقالت إن الأمر حدث على عجل، ولم يكن زفافًا بالشكل المعهود.

كتمت دهشتي حين قرأت في عينيها ألمًا تحاول مغالبته؛ كيلا يستدر دموعها، وبدأت أسرد عليها بعض الأخبار عني وعن بقية الزميلات المناضلات ضد آراء المجتمع القاسية؛ لأرفه عنها. وذكرتها بوعد قطعناه في إحدى جلساتنا القديمة لتأسيس حزب للمضربات عن الزواج فكانت الوحيدة التي أعلنت عنه الانفصال قبل أن يبدأ، ضحكنا قليلًا، ثم مرت لحظات صمت قبل أن تقول بلهجة مهزوم: ربما كان عليّ الانضمام!

وحاولت أن تبرر عبارتها المحبطة، فقالت:

- أذكر التفاصيل تمامًا، لم يكن حزبًا ضد الزواج بل كان فكرة لمحاولة التعبير عن رفض الزواج التقليدي الذي ينظر إلى المرأة وكأنها

مجرد خادمة أو مربية دون احترام لكيانها وتطلعاتها وأحلامها الشخصية.

فرَّتْ من بين شفتيها ضحكة ساخرة- وهي تتساءل معقبة:

- لا أدري ما الذي دفعني آنذاك لإعلان الانفصال، ربما كان شيئًا يلح في رأسي حينها، فدائمًا ما تكون هناك حسابات أخرى تغير المعادلات!

تظاهرت بعدم الاكتراث لتعليقها الذي بدا لي مأساويًّا رغم ما تبديه من عقلانية في التبرير، وسألتها إن كان لديها أطفال، فأجابت: نعم، اثنان. وأضافت بابتسامة مبتورة: لقد تزوجت منذ فترة قصيرة على أية حال!

بدا لي تعليقها كإجابة واضحة عن بعض أسئلتي الحائرة حول سر ما بها، فقصة الزواج المتأخر عادة ما تكون تراجيدية بما يكفي؛ حيث غالبًا ما تصل الفتاة إلى حالة سباق مع الزمن لإدراك ما تبقى لها من أمل في الاستقرار أو تحقيق حلم الأمومة؛ فتضطر إلى قبول ما تيسر من المتقدمين الذين لا تكون مزاياهم أكثر من عيوبهم في الغالب.

في الحقيقة إنني لم أجد تعليقًا، وكأن الكلمات قد ضاعت من فمي، فقد اختلطت أفكاري في لحظات بين توقع ما تمر به وبين ما حدث معي خلال السنوات الأخيرة. فقد تكون هناك أمور مشتركة بيننا يمكنني فهمها واستشعارها، لكنني بعد لحظات استطعت أن ألملم أفكاري وأدعو لأبنائها بالحفظ والحظ السعيد، فضحكت بتعاسة لتزيدني ارتباكًا دونما قصد.

حدقت في عينيها متعجبة- وأنا أسألها عن سر ضحكتها، فأجابت:

- كما أنت، تضيع أفكارك في المواقف الصعبة.

فتساءلت بسخرية محاولة تبديد ظنها:

- وأي موقف صعب هنا، وقبضت على كفها- وأنا أقول:

- لقد سررت جدًّا من أجلك.

سرحت ببصرها في وجهي للحظات، ثم قالت:

- أنت بالذات لا يمكن لك أن تقولي هذا.

وقلت مستنكرة:

- ولم؟!

فقالت:

- لأنك الوحيدة التي دائمًا ما كانت تشعر بنا دونما حاجة للحديث!

حاولت أن أبدو غبية لأثنيها عن حديث مرير بدا متأهبًا للانهمار في لحظة كتلك، قلت لها مازحة:

- حسنًا، لا تخافي أن تنال منك عيني؛ فهي باردة كالثلج.

بادرتني بجدية؛ لتقول:

- تفهمين ما أعني، لم أقصد ما تحاولين الإشارة إليه مطلقًا.

انطلقت مني زفرة قصيرة استعدادًا لسماع قصة كئيبة. يبدو أنه أصابني

obeikan.com

الكبر أكثر مما أبدو عليه فضاقت نفسي، ولم يعد صدري رحبًا للحكايات الحزينة كالسابق. قلت لها مبدية استعدادي للإنصات:

– ما الذي تودين قوله؟!

سرحت ببصرها بعيدًا، وهي تتمالك نفسها؛ لتبدو صارمة على وجعها، ثم قالت:

– تعلمين أننا لم نقم حتى حفلًا للزواج؟!

وصمتت قليلًا، ثم قالت:

– ربما يكون هذا عذرًا كافيًا لكم.

نظرت إليها بإشفاق حرصت على إخفائه وأنا أمسك يدها– قائلة:

– ليس هذا العذر الذي يريحنا.

حاولت أن أخفف من وقع الأمر عليها، فأنا أدرك كم يعني حفل الزفاف لأية فتاة، وكم هو موجع أن يُفتقد من صفحة ذكرياتها.

قلت لها:

– لا تكترثي كثيرًا لهذا الأمر؛ فهناك كثيرات لا يحبذن حفلات الزفاف، ويجدنها ترفًا لا فائدة منه، كما يفضل كثير من الأزواج استثمار تكاليف هذه الحفلات في السفر والاستمتاع معًا، وغمزتها، وأنا أقول:

– تعلمين أنها ليست سوى مناسبة لتبادل النميمة بين النساء.

obeikan.com

كانت تنصت لي وهي تصطنع الابتسام، ثم قالت:

- أحيانًا، حين أتأمل حياتي، أشعر أننا مسيرون فقط، حتى فيما نختار.

قلت لها ممازحة:

- هذه أول المزايا التي منحك إياها الزواج.. الحكمة والتفكر !

ابتسمت بوهن- وهي تعقب:

- هنيئًا لي.. ها قد توصلت إلى فائدة!

وبلهجة جدية وهادئة، قلت لها:

- لماذا تتحدثين بهذا اليأس؟!

تنهدت، ثم نظرت إلي، وقالت:

- ربما في السابق كنت لا أزال أملك القدرة على الاحتفاظ ببعض الأوجاع لنفسي، ربما رجاء انتهائها، ربما لأنها كانت محدودة على أية حال، لكنني اليوم أشعر بالضعف فعلًا.

عضت شفتها كمن يخفي ألمًا صامتًا، وهي تلقي بنظرة بعيدة إلى الفراغ لتصرفني عن ملاحظتها، ثم قالت:

- إنها فرصة عظيمة أن أراك اليوم، ربما ساقتنا الأقدار لهذا اللقاء؛ فأنا بحاجة إليك حقًّا.

ربتُّ على كتفها- وأنا أقول:

obeikan.com

– لا بأس. مهما مرت بنا الأيام من الجميل؛ إننا لا نزال نستطيع الإنصات إلى بعضنا والتفكير معًا.

لمحت في طرف عينها دمعة سرعان ما انحدرت إلى حتفها، فشعرت بالتوتر، وغالبًا ما ينتابني هذا الشعور في مثل هذه المواقف؛ حيث لا أدري أي عبارات يمكن أن تكون قادرة على تغيير مسار الحديث إلى الأفضل. مددت يدي إليها وحاولت أن أمسح أثرها، فقالت وهي تغالب دموعها التي تسلل منها الكثير، وفشلت في كبحها:

– تذكرين؟ منذ خمسة عشر عامًا عندما حدث نفس الموقف، لم أتمالك نفسي وبكيت، ومسحت لي دمعة وأنت تطلبين مني التوقف قبل أن تشاركيني البكاء.

لم أستطع مقاومة تداعيات تلك الذكرى الحزينة، وقصص الأسى التي تحركت بداخلي إثر استدعائها. لا يمكن لي أن أكون هشة كسابق العهد؛ فقد قطعت وعدًا لنفسي ألا يهزمني التأثر، وأن تكون دموعي عزيزة، لكني أعجز عن مقاومة حشرجتها في صدري، أشعر أنها تتحدى صمودي، كيف لها أن تختبر قوتي الآن، يا لها من كريهة! ومر شريط الذكرى في رأسي كسيال مستمر السريان، ولاح في رأسي المشهد كاملًا.

في ذلك اليوم بدت لي على غير عادتها، واجمة شاردة، كمن وقع في ورطة

أو حلت به نازلة، ظلت تلقي علي نظرة بين وقت وآخر، وكأنها تدعوني لأسألها عما بها، حاولت التهرب كثيرًا خوفا من أن أفشل في معالجة الأمر، لكن مغادرة بقية الفتيات اللاتي كن يشاركننا المكان وبقاؤنا بمفردنا أرغمني على طرح سؤال سرعان ما استجابت له مبادرة بسرد قصة حبها العظيم لأحد أقاربها.

كانت قصة بدائية كأية قصة عاطفية تدور بين فتاة وأحد أبناء العائلة، لكنها كانت فريدة بالنسبة لقلب بريء، يخفق لأول مرة للحب. لقد أحبته بصدق، روت لي كيف كان يسترق اللحظات ليلقي عليها قصيدة صغيرة تحكي عن حبه لها، أو يقدم لها هدية بسيطة تخفيها في طيات ثيابها بعيدًا عن أنظار أفراد الأسرة كجوهر ة ثمينة. كانت الحياة آنذاك لا تزال بسيطة بعيدًا عن تكنولوجيا الاتصال الحديثة التي حملت معها المزيد من الخيارات للتواصل وتبادل الأفكار والمشاعر بين الناس.

حتى يوم واحد كانت تبدو في قمة السعادة وهي ترتدي خاتم الخطبة، وتبتسم خلسة وهي تتذكر آخر حديثه لها عن أحلامه لبيت الزوجية، لكن في مساء ذلك اليوم حدث ما لم يكن في الحسبان؛ حيث ثار خلاف بين الأسرتين، أقسم على إثره والد حبيبها بتزويجه من فتاة أخرى في العائلة وإلغاء خطبته منها، فما كان من والدتها إلا اتخاذ قرار بمقاطعة شقيقها ردًّا على موقفه، وهكذا لم يكن أمامها سوى قضاء ليلة مريرة تحمل آخر اتصال ممن أحبت.

لقد كان مثلها ضحية خلاف لا شأن لهما به، ومثلها لا يملك الجرأة للخروج على كبار الأسرة اعتراضًا على ما حدث. كانت القيم الكبرى آنذاك أقوى وأكثر أولوية من العواطف؛ ولهذا كان عليهما احترام قرار الحرمان الأبدي دونما جدال.

لم يكن نزعه من آمالها سهلًا؛ فقد كان نافذة حياة بالنسبة لها، كان الأمل الذي يعيد إليها الرغبة في البقاء بعد سنوات من رحيل والدها الذي لم تفلح في محوه من ذاكرتها.

بكينا للحظات في صمت، ثم حاولتُ التماسك وتمثيل الفكاهة، فقلت لها:

– لا يجدر بنا أن نتحول إلى التراجيديا الآن، دعينا نستمتع قليلًا بهذه المناسبة الجميلة.

تناولت حقيبتها بهدوء، وأخرجت منديلين ورقيين فأعطتني واحدًا وجففت بالآخر دموعها متجاوبة مع اقتراحي.

قلت لها- وأنا أطوي منديلي عدة مرات محاولة استعادة هدوئي:

– حين نكبر، تتبدل نظرتنا للحياة وما فيها، حتى للحزن والفرح، كل شيء يبدو مكررًا في صور مختلفة؛ لذلك يفترض بنا ألا نصاب بالدهشة. لقد مررنا بالكثير.. النجاح والسقوط، اللقاء والافتراق والوداع، لم يعد يهزني شيء.

أبكي كما لو كان البكاء طقسًا مناسبًا لأحداث تعيسة، وأضحك كما لو كان الضحك طقسًا لأحداث تبدو سعيدة، أعني أن الحياة مجرد قصة ينبغي أن نحياها كما هي، فلا الحزن يغير من أحداثها ولا الفرح. إنها تسير في مسارها المحدد سلفًا، كل ما في الأمر أن علينا التعايش مع ما يجري خلالها.

قالت- وهي تدلك أطراف أصابعها:

- مازالت تحليلاتك للحياة تدهشني، هل تعلمين أن تغيير الأفكار يمكن أن يغير الشعور؟!

أجبتها:

- نعم. أفهم هذا، غير أن تغييرها يتطلب جهدًا لا يستهان به. وهذه المشكلة التي تواجهنا.

وبنبرة حزينة ذات مغزى قالت- وهي تلتفت إلي:

- ربما بعد هذا الحوار لا ينبغي أن أذكر لك ما وددت قوله. من السيئ جدًّا أن يكون أول حديث بيننا بعد هذه السنين قصة كالتي أريد أن أحكيها لك الآن في كلمات، ولكن ربما التمست لي العذر حين تعلمين أننا قد لا نلتقي مجددًا.

أخذتني الدهشة، وسألتها بصوت مازجه الإحباط:

- لم تقولين هذا؟!

obeikan.com

أجابت بابتسامة باردة:

- لا تقلقي، لا أعني الموت وإن كان مصيرًا في يوم ما، لكنني سأسافر إلى الخارج ويخيل إلي أني قد لا أعود، فأنا أفكر في البقاء هناك لعدة سنوات على الأقل؛ كي أعيد ترتيب ذاتي والابتعاد عن الأجواء الخانقة التي اعتدتها هنا.

حاولت إخراجها من حالة البؤس التي لفتها، وقلت لها مازحة:

- تقولين هذا وكأننا نعيش في العصر الحجري، لا تحاولي الفرار مجددًا؛ فهناك هاتف خلوي ووسائل تواصل متعددة سأقض مضجعك بها.

قبضت على يدي بحزم- وهي تقول:

- أرجوك دعيني أحدثك بما أريد، أعلم أن الحديث قد لا يغير شيئًا، ولكن معك بالذات أراه يعني لي الكثير. لقد ظللت طوال الوقت بحاجة إلى شخص مثلك أناقشه أفكاري، فالقضية بالنسبة لي ليست مجرد بوح.

ربتُّ على كتفها بيدي الأخرى- وأنا أقول:

- لا بأس. تعلمين أني متفرغة تمامًا، سأنصت لكل كلمة وأعدك بعدم المقاطعة.. ما الذي يزعجك؟

صمتت لبرهة وكأنها تلملم أجزاء حديثها المكتظ بالتفاصيل، ثم بدأت قائلة:

– نحن صديقات، وأنا أفهم شعورك اليوم فقد جربته حتى عامين خلت تقريبًا. لن أحلل الأمر بالصورة المعتادة وأتحدث عن نظرة المجتمع، لن أتحدث عن الخيبات ولا عن ضياع الأمنيات البريئة، بل سأتحدث عن المخاوف. عن الضياع أو الخوف من الضياع، حين يمضي بك الزمن، وتجدين جميع من استندت إليهم أو تناسيت في وجودهم مخاوفك قد رحلوا، حين تنظرين حولك وتجدين من كانوا بالأمس أطفالًا يطلبون منك الحلوى قد كبروا وأصبح لديهم بيوتهم الخاصة والعديد من الأبناء والبنات، بينما لا تزالين في محطة الانتظار. انتظار الحب، الدفء، الحماية التي تعرت منها كتفاك، التحول الإجباري من مجرد ابنة إلى مزيج من كل الأدوار التي لم يعد هناك من يقوم بها سواك.

أطلَقَت زفرة، ثم تابعت..

– الحاجة للأمومة، أن يكون لك طفل يأخذ من عاطفتك وعقلك، يكبر أمامك، وتحلمين من أجله، وربما تحاولين أن تعوضي مالم تحصلي عليه في شخصه، أن يكون لك روح تحيا من بعدك، وتتذكر كلماتك ونصائحك، وتنقلها للآخرين. روح تحفظ وجودك بعد الرحيل، تدعو لك بصدق ورجاء حين ينساك الجميع.

تنَهّدت بعمق، ثم صمتت لحظات لتكمل بعدها– قائلة:

– آسفة لحديثي، ربما من الوقاحة أن أذكر هذا، ولكن لابد أن هذه أفكارنا المعتادة.

أجبتها بتفهم:

- لا داعي للأسف، بالفعل هي أفكارنا المعتادة، وربما همومنا المشتركة. إنها طبيعة الحياة!

ثم قلت مستفهمة:

- ولكن.. ما العيب في ذلك، إنه حق مشروع لكل إنسان أن يحلم ويأمل ويعتريه القلق أيضًا لو استدعى الأمر؟!

ضحكت بسخرية- وهي تقول:

- حقًّا.. لا أعلم أين الخطأ، هل هي محاولة الفرار، أم الاستسلام، أم اليأس، أم الإذعان للقدر!

عقبت على حديثها:

- لا تفكري كثيرًا، ما دام الأمر قد حدث فلا يجدي التساؤل.

أحيانًا يا «منال».. نتخذ قرارًا ما لا تعجبنا نتائجه، ونبدأ بالتذمر والندم والأسف على اتخاذه لاحقًا؛ لأننا ببساطة نسينا الظروف التي أجبرتنا على اتخاذه آنذاك، وإن بدا كريهًا أو سقيمًا. للظروف أحكام كما يقال.

قالت باهتمام:

- بالفعل، هذا هو التفسير المنطقي. نستمع لعبارات كثيرة في حياتنا ويخيل لنا أننا فهمناها، ثم يأتي وقت نشعر فيه وكأنها ترد علينا للوهلة الأولى!

قلت لها:

- لا يمكنني تصور ما يزعجك، ولكن يبدو أن قرار الزواج هو المقصود؟!

أجابت بأسف:

- نعم، هو بالفعل!

قلت لها وقد دب إلي حماس غريب لنقاشها في الأمر:

- حسنًا.. ولم ترينه هكذا الآن؟

أجابت بانفعال مكبوح:

- وهل شعرت للحظة أنه على عكس هذا؟!

قلت:

- إذًا.. كان منذ البداية قرارًا خاطئًا؟!

تنفست الصعداء لتعيد إلى نفسها بعض الهدوء، وقالت:

- كما ذكرت قبل قليل.. نضطر أحيانًا لاتخاذ قرار خاطئ؛ هربًا من واقع مشئوم.

سألتها باستنكار:

- هل فعلت ذلك هربًا من العنوسة؟!

obeikan.com

فبادرتني بسؤال عميق:

- وهل كانت العنوسة كل شيء؟!

- ماذا تقصدين؟

- الخوف. الخوف من الضياع، من الوحدة.. أليس مبررًا كافيًا؟!

صمت متحيرة، ثم اعترفت قائلة:

- نعم.. إنها مبررات منطقية، ولكن.. ألم يدر في عقلك أن هناك ما يمكنه قتل الوحدة والخوف غير الزواج، العمل مثلًا.

قالت:

- تعلمين أنني لم أتمكن من مواصلة دراستي بسبب تعنت الأسرة، ثم الأمر ذاته بالنسبة للعمل، فلا تحاولي مناقشتي في الأمر، وكأنني كنت أعيش وضعًا افتراضيًّا كمعظم الناس، هناك من يعيش خارج حسابات الحياة المدونة في الكتب والمعروضة على شاشات التلفاز!

الثامنة وأربع دقائق..

كنت أتابع الانفعالات في صفحة وجهها، وأنا أفكر في تلك الحقيقة التي واجهتني بها توًّا، إنها مشكلتنا الأزلية، صراعاتنا، خلافاتنا، أحكامنا على بعضنا ينقصها المنطق، فنحن دائمًا ما نتعامل مع الآخر دون اعتبار لظروف حياته الخاصة التي تحكم مواقفه وقراراته، وكأن كل ما يهمنا

الانتقاد، والتشكيك في منطقية الآخر، وربما الشماتة في قراراته الفاشلة، وكأننا نبحث بهذه القسوة عن شيء يضمد جراحات أخطائنا ونكساتنا، ثم نتساءل في قرارة أنفسنا بحماقة عن ذلك السر الذي يجعلنا قادرين على حل مشاكل الآخرين عاجزين عن حل مشاكلنا وإن تشابهت معها!

قلت لها:

– حقًّا.. ربما تنقصنا المنطقية في الحكم على الآخرين.

فأكملت قائلة:

– حصلت على زوج، أصبح لي بيت، وأصبح لي أبناء كما أردت. ولكن.. أين أنا من كل هذا؟!

أجبتها بطريقة ميكانيكية:

– أنت الأم والزوجة والملكة.

ضحكت بسخرية– وهي تقول:

– ملكة في منفى الحياة، الخوف مجددًا!

تساءلتُ باهتمام:

– الخوف من ماذا؟

أجابت:

– من الوحدة أيضًا.. يبدو أنها كابوس لا نهاية له.

obeikan.com

قلت لها بهدوء:

– هل تظنين أن الأمر مجرد تخيلات خاطئة؟!.

أجابت بيقين:

– إنها الواقع يا صديقتي. خوف الفقد مجددًا، ثم قالت بسخرية حزينة:

– هل تعلمين من يكون زوجي؟!

قلت لها دون مبالاة:

– المهم أن تكوني سعيدة.

أجابت عن سؤالها منكرة تعليقي:

– إنه رجل مسن، وأعلم ما الذي يمكن أن تعلقي به على أمر كهذا، فقد تعلمنا من أمهاتنا وجَدَّاتنا تلك الكلمات المخدرة للعقل والعاطفة فالمهم هو اللطف وحسن المعشر، لكني سأخبرك أن هذا ليس كل شيء أيضًا.

أدركت أنها تفقد شيئًا عميقًا في داخلها، قلت لها بسذاجة مصطنعة:

– وما الذي تبقى؟

قالت في تحدٍّ:

– لن أجيب مباشرة، فأنت تنظرين إلى الحكاية نظرة مجملة، صورة مكونة من بيت وزوجين وأبناء، حياة عادية جدًّا، ومن الطبيعي أن تتخللها بعض المتاعب والمصاعب.

obeikan.com

حدقت بي، وتابعت:

– سأحكي لك عن شيء من التفاصيل الصغيرة، الزوج الكبير الذي لا طاقة له على الخروج، لا رغبة له في الحديث الطويل، لا قدرة له على احتمال إزعاج الأطفال.

وتماسكت بصعوبة؛ لتكمل حديثها دون أن تنخرط في البكاء:

– في موقف عصيب كالولادة لا يمكنه إنقاذك بنفسه، فكل ما يستطيعه طلب الإسعاف.

هناك بيت آخر وامرأة أخرى وأبناء، وهناك أجل يسرع إليه لتعودي وحيدة مجددًا، ولكن بعبء إضافي.

قلت لها:

– ربما هناك مواطن صحة فيما قلت، ولكن الأعمار بيد الله. هل هو مريض؟

أجابت:

– لا أعلم. لكن شعورًا مربكًا ينتابني بشأنه منذ البداية.

– حسنًا. ما الذي يدفعك للقلق بهذا الخصوص؟

– ربما كان هو السبب، فحديثه الأول معي كان حول هذا الأمر!

– ماذا تعني؟

obeikan.com

ابتسمت بامتعاض، وقالت:

- لم يكن كأي زوج يحدث عروسه عن المستقبل والسعادة ويمنيها بما يرضيها، كان مختلفًا تمامًا إلى حد أنه حدثني عن الموت. قال لي مبررًا سرية الزواج:

- إنه زواج مشروع لا غبار عليه، كل ما في الأمر أنني أحاول أن أجنبك المخاطر التي قد تلحق بك فيما لو وصل الأمر إلى علم أسرتي، لكن حقوقك كزوجة هي ذاتها كما هي حقوقي عليك كزوج، فإذا ما توفي أحدنا فإن حقه يظل محفوظًا!

كتمت دهشتي مما ذكَرَت، وقلت في نفسي:

- يا له من رجل! أي شيء يدور في رأسه، أتراه ينظر للأمر نظرة مادية بحته لا أكثر!

دارت تلك الأسئلة في رأسي- وأنا أراقب تعابير وجهها- ثم قلت لها:

- لا شك أنك تعلمين مدى محبتي لك، أقول هذا لتتقبلي مني هذا التعليق الذي قد لا يروق لك، لكن الحياة يا حبيبتي ليست مثالية ولا مكان فيها للكمال، فإذا طفت ببصرك قليلًا ستجدين أن هناك من تزوجت شابًّا ثم طلقها، أو اكتشفت أنه مدمن يسيء معاملتها، هناك من تزوج بامرأة أخرى، وهناك من كان رغم قوته وشبابه لا يرافق زوجته لأي مكان وإن

كان لولادة طفله. أعني أن علينا ألا نتوقف أمام النقاط الصغيرة القاتمة وأن ننظر إلى حياتنا بالمجمل كما ينظر إليها الآخرون كي نحبها، أو على الأقل كي يمكننا الاقتناع بها.

قالت- وهي تلف خاتم زواجها حول إصبعها بتوتر:

- لا أنكر أن هذا هو الصواب، ولكننا في النهاية بشر، نسعى نحو الكمال، نتأثر بما حولنا، نتنافس، نسعى لإرضاء أرواحنا، نود أن نكون الأفضل دائمًا. ونحاول استرضاء أنفسنا بالبحث عن عوض لما حرمتنا منه الأيام، ومع الوقت.. قد نكتفي بالقليل جدًّا، إلا أن القليل لا يبدو راغبًا بمرافقتنا!

وواصلت قبل أن تتدحرج من بين جفنيها دمعة ثقيلة سرعان ما خطت لما بعدها مسارًا قصيرًا، وسقطت فوق كفها الناعمة:

- أشعر أحيانا أن الحياة تتغول علينا كلما أظهرنا تقبلًا وتكيفًا مع كل وجبة موجعة نتناولها مرغمين. إنني أرى خيبتي في كل شيء، في رواية حب مشبوبة بالعاطفة، في فيلم مليء بالتضحيات من أجل الحبيبة التي لم تعاني أكثر مما عانيت أو تخسر مثلما خسرت، في كلمات شعرية من محب إلى محبوبته التي استطاعت نسيانه ومتابعة حياتها، بينما لا يزال يحفظ الود ويصون العهد. لا أدري ماذا أقول، لكني أشعر بالظلم، فمن يملك العطاء والقدرة على التضحية دائمًا يخسر، ومن يحصل على الحب والسعادة غالبًا لا يستحقها إذا ما وزن بميزان العدالة التي نراها نحن.

اقتربت منها ومسحت على شعرها الذي ما زال محتفظًا برونقه رغم بعض الشعيرات البيضاء الهاربة من لون الصبغ الذي استخدمته لتحافظ على مظهرها الشاب الذي يبدو أنها لا تود خسارته. فتعلقنا بالأشياء هو الشعرة التي تربطنا بالحياة، وهكذا نظل في حالة تشبث وفقد حتى لا يتبقى بأيدينا سوى قشور الحياة لتفصلنا عن الموت.

قلت لها:

– نعم يا عزيزتي. هذا ما نفعله عادة لأننا نسعى إلى الكمال، ولكن لو أمعنت النظر قليلًا لوجدت أن حياتك اليوم أفضل بكثير مما كانت عليه. لقد أصبح لديك طفلين يدفعانك للتمسك بالحياة، يمكنك أن تتناسي أمام ضحكاتهما قدرًا من الأسى والإحباط، هناك روحان تثقين بحبهما الحقيقي لك مهما حدث، ومثل هذه النعم لا يمكن أن تقدر بثمن.

قالت لي:

– هذا قدر من الكلمات التي كنت بحاجة إلى سماعها، لكنني مع هذا أعترف بعجزي عن التكيف مع قدري. لا يمكنني أن أخفي ألمي وخيبتي رغم كل ما حاولت أن تبصريني به من مزايا عظيمة. إنني أبحث عن نفسي، سعادتي الشخصية، فأنا أستحق شيئًا من السعادة قبل أن أغادر الحياة، سئمت من العطاء فقط دون أي مقابل، سئمت من كوني ضحية دونما رغبة مني في

ممارسة هذا الدور المهين، أشعر بالافتقار إلى الحب ما زلت أفتقده، بل أفتقده أكثر مما مضى، إنه لا يزال في مخيلتي بصور بسيطة لا تكلف شيئًا، بل تبدو للآخرين في غاية السخف والتفاهة، لكن الحياة تبخل علي به.

بعد تأمل كلماتها التي عزفت على أوتار أفكاري وشعرت معها وكأنها تلقنها بعضًا منها لتلقيه عليّ بلسانها، حاولت أن أبدو متفاجئة، واجتهدت لأبدي دهشة بلهاء على ملامحي.. قلت لها:

– لقد اتفقنا أن الحياة لا تسير كما يحلو لنا، ربما ينقصنا شيء من الرضا بأقدارنا كي نستطيع التأقلم بصورة أفضل. لا يمكنني أن أختلف معك فيما تطلبين لذاتك، ولكنك الآن قد انتقلت من حالة الحلم إلى الواقع الذي تعيشين فيه، فإذا واصلت رفضك له لن يتغير شيء، كل ما سيحدث أن تسوء الأمور أكثر، ويزداد في داخلك الرفض حتى يعتريك القنوط ويصبح كل شيء بلا معنى.

أطلقت زفرة حرى، وقالت:

– هذا ما أشعر به حقًّا!

أزحت عن وجهها خصلة من شعرها المنسدل– وأنا أقول لها بودٍّ:

– حبيبتي، حتى تتمكني من الخروج مما تشعرين به لا بد أن تبحثي في حياتك عن مواطن الجمال والسعادة. دعينا نذكر بعضها الآن.. ما رأيك؟!

ثم أمسكت يدها وبدأت أعد لها بعضًا من مزايا حياتها الجديدة، وأنا أحني أصبعًا من أصابعها كلما ذكرت واحدًا بطريقة تشبه لعبة قديمة كنا نفعلها للأطفال حين يغضبون لنرفه عنهم.

– لقد تخلصت من الوحدة وأصبح لك رجل يشعرك وجوده بالأمان وإن كان كبيرًا، فلا أحد يدري كم هي سنوات عمره المكتوبة، ومهما يكن.. فالمهم ألا تضيع في الأسف والحزن على مالم يتحقق بقدر استمتاعنا بكل لحظة جميلة في صفحاتها.

أحنيت أصبعها الآخر– وأنا أقول:

– لقد أصبح لك بيت تتصرفين فيه كما يحلو لك، تتحكمين في تفاصيله وحتى في اختيار من يمكنه دخوله. فلست مضطرة لاستقبال أشخاص مرفوضين أو غير مريحين بالنسبة لك كما كان يحدث في منزل الأسرة.

وطويت أصبعها الثالث وأنا أذكرها بطفلين لطيفين كالملائكة يضفي وجودهما على حياتها معنى وأهمية وأنسًا يبدد وحدتها، وطويت الرابع لأقول أن كابوس المستقبل المجهول قد انتهى، وذكرتها في الخامسة أنه حتى لو لم تكن حياتها كما أرادت فهي على الأقل لا تعيش على هامش الزمن، فهناك بلا شك لحظات جميلة من الحب والدفء والأمان لم تكن ذات وجود من قبل في حياتها.

obeikan.com

قبضت على يدي لتحثني على التوقف قبل أن أتابع عصفًا ذهنيًّا عصيبًا لعقلي؛ لعلي أستقي منه نقاطًا إيجابية في حياة امرأة يائسة.

حدقت في عينيها التي احتقنت بدموع قديمة، قرأت في نظراتها رسائل صرخات مكتومة، ولاحظت هي حيرتي التي لم تخفها تقاسيم وجهي بعدما أدركني اليأس فأظهرت تماسكًا وهي تعلق على حديثي- قائلة:

- قد لا يكون العيب في سنه، لكن ما يحدث بعد التقاط الأنفاس أن تعاودك أحلام الصبا، فتتحطم صورة الرجل الذي تتطلعين إلى الحياة معه كلما وقع بصرك على زوج مثله، لم يلبث طويلًا حتى صار يبدي اكتفاء منك، يضيق ذرعًا بأحاديثك التي تحاولين أن تقتلي بها صمته المطبق، تتعرضين مثلًا إلى موقف سيء أو تواجهين مشكلة يومية؛ فيتذرع بالانهماك في قراءة كتاب قرأه ألف مرة من قبل، أو بإجراء مكالمة ترغمك على السكوت.

نظرت في عيني؛ لتخاطب عمقي، وقالت:

- تفهمين ما أعني.. أن يهز ثقتك بذاتك ويشعرك بأنك لم تكوني تستحقين مجازفته بأسرته، أن تتحول الرغبة الجامحة التي كان يمكن لسواي أن تحولها وسيلة لإذلاله أو استغلاله إلى تأفف وضيق. إنه يشعرني وكأنني احتلت عليه لأوقعه في شراكي وليس العكس. أكاد أفقد عقلي من تعامله معي أحيانًا.

قلت لها:

– لا شيء يستحق أن تفقدي عقلك من أجله.. لا تقعي في الفخ، إنه يتعمد إيصال هذا الشعور إليك كوسيلة دفاع لا أكثر!

سألتني باهتمام:

– ماذا تقصدين؟

وأجبتها بسؤال:

– لو لم تغرقي في هذه الأفكار، ما الذي يمكن أن يحدث؟!

قالت بنفاذ صبر:

– أرجوك، ليس باستطاعتي الآن تحليل الأمر

فأردفت قائلة:

– إنه يعتمد الهجوم وسيلة للدفاع، وإن لم أكن ظالمة فهو يخشى أن تبادريه بما تفعل الزوجات عادة وتبدئين في التذمر من تقصيره أو إيجاد فرصة لتفحص عيوبه؛ ولذلك يستبق هو بالهجوم كي يشغلك بالتشكك في ذاتك كما تفعلين الآن!

وضعت يدها على فمها في ذهول كمن تلقى خبرًا مفجعًا، وبدت كمن يستعيد بعض التفاصيل، ثم سالت دموعها بهدوء.

شعرت أنها بحاجة للحظات تغسل قلبها من هم طويل، وأخذت أمسح شعرها وأدلك كفها برفق قبل أن أواصل حديثي معتذرة:

obeikan.com

– أنا آسفة لما قلت، فقد تحمست مع حديثك ولا أعرف كيف تسرعت في هذا التحليل، ولكن من المهم يا حبيبتي ألا تدعي شيئًا يهز ثقتك في نفسك. عليك أن تتذكري دائمًا ما الذي يدفع رجلًا مثله للزواج منك ما لم تكن هناك فائدة تعود عليه. بعض الرجال تغريهم الفتاة البسيطة طمعًا في الاستحواذ عليها والتأكد من تطويعها بسهولة.

وتابعت:

– لم أكن لأدرك هذه الحقيقة لولا الكثير من القصص التي مرت بي، فلست وحدك ضحية هذا الفكر المستبد (إن كان كما أظن)، فهناك فتيات في قمة الجمال والذكاء والأنوثة ومع ذلك منهن من ترى نفسها أقبح النساء وأغباهن نتيجة لما يوحيه إليها زوجها أو يلقيه عليها من كلمات تحقر من جمالها أو ذكائها لغرض في نفسه.

جميعنا نتأثر بآراء الآخرين بنا، ولكن الأمر متفاوت حيث يزداد اليقين مع شدة القرب، وليس هناك من هو أقرب للفتاة من زوجها. إنه مستودع أسرارها، أكثر الناس التصاقًا ومعرفة بها؛ ولذلك فعندما يبدي رأيًا سلبيًّا في حقها لن يساورها شك في صوابه كلما زادت ثقتها به.

وصمتُّ قليلًا، ثم قلت لها وقد زاد في داخلي تصميم غريب على إكمال حديثي:

– مازلت تحتفظين ببراءة الطفولة، لكن الحقيقة التي يدركها الكبار أن المصلحة أقوى من الحب، فإذا تعارض الاثنان كانت الغلبة للمصلحة، وهذا ما يبدو أن الرجل يمارسه معك، فلا تدعي الكلمات تؤثر بك، وانظري بعينيك وعقلك، انظري إلى المرآة وشاهدي ملامحك كم هي جميلة، انظري للأخريات لتعلمي أن من بينهن من تزوجت متأخرة لكنها مازالت تحتفظ بقوتها، تثق بذاتها، تفرض احترامها على من حولها لأنها لا تصغي إلى تشكيكهم وتثبيطهم. آمني بذاتك يا حبيبتي فلست بحاجة لمن يخبرك من تكوني وما هي قيمتك.

حاولي الاستمتاع بحياتك، بحريتك، بخلاصك من ألم الانتظار والوحدة، استمتعي بأمومتك، استمتعي بوقتك.. ولا مانع من تذكر تلك المصاعب والمعاناة التي مررت بها قبل الزواج لتدركي أنها أصبحت من الماضي بعدما كانت أشبه بكابوس لا يود الانتهاء.

قالت بعدما جففت دموعها وتوقفت عن البكاء، وبدت لي كمن يتحرر من شرانق ضغوطاته وحيرته:

– في ليلة عيد.. اشتقت أن أخرج معه لنتجول في طرقات المدينة، تعلمين أنني لا أكترث للمظاهر المادية، وقد أجد متعتي في كوب شاي أتناوله في حديقة عامة على وجبة فاخرة في أغلى الفنادق، وطالما تمنيت أن أخرج في مثل تلك المناسبة لأرى مظاهر العيد. إنها تعيد إلي مشاعر الطفولة

وذكرياتها التي أصبحت اليوم في نظري أجمل بكثير. هاتفته لنخرج معًا، فقال لي بكلمات مختصرة أن علي إعداد نفسي؛ لأنه سيقضي معي بضع ساعات بعد صلاة العيد وتمتم سريعًا بعبارة تهنئة، ثم أغلق الهاتف ليذهب للنوم.

وقبضت بحركة لا إرادية على عنقها- وهي تتابع:

- أشعر بالاختناق بين جدران المنزل، فكل ما تغير من حياتي الماضية مجرد جدران، جدران متهالكة كئيبة تحفل بذكريات الخوف والألم والفقد والمشاحنات، ثم جدران جديدة، مدهونة ومزينة لكنها باردة كالثلج، بينما أنا كما أنا، أتنقل من مكان إلى مكان دون أن يتبدل شعوري، أشعر بالوحدة، أشعر بالوحشة!

نظرت إلي وقد عادت عيناها مغرورقتان بدموع ساخنة- وهي تقول:

- هل تعلمي كيف هو الشعور بالوحشة؟!

أطرقت برأسي قليلًا؛ كي أستجمع أفكاري، فكلماتها كانت كافية لتشتيت ذهني وإثارة مشاعر دفينة في نفسي، فلست مستعدة لسرد ما يجري معي لأحملها على التصبر. قلت لها وأنا لا أزال مطرقة:

- حسنًا. ربما علينا الاعتراف بأن الخطأ يكمن في الداخل، فعندما يظل الشعور سلبيًّا كما هو رغم تبدل الظروف يمكن أن نصنفه كخطأ ذاتي!.

وأردفت قائلة بنبرة ودٍّ:

- لا تغضبي مما أقول، فإنما أحدث نفسي معك. يعز علينا أن نعترف بالخطأ، لكن حالة الرفض القاطع محبطة جدًّا، أن نظل متشبثين بصورة محددة للخلاص أو السعادة نرفض أي اختلاف في ملامحها، نحن في النهاية من نخسر. فالحياة تحتاج إلى مرونة في الاستجابة لهباتها وأقدارها، وقد اتفقنا يا «منال» أننا خلقنا لنؤدي دورًا مكتوبًا، وهو لم يكتب بأيدينا على كل حال!

قالت لي:

- تحاولين القول بأن الرضا ما ينقصنا؟، فأجبت بنعم.

هزت رأسها وكأنما تتفق مع حديثي قبل أن تقول على نحو مفاجئ لتوقعاتي:

- لا أظن الأمر بأيدينا أيضًا.

قلت متسائلة:

- وكيف؟!

قالت- وهي تحاول توضيح الفكرة لي:

- هناك مثلًا من لها قصة كقصتي ولا شك، لكنها استطاعت أن تحب حياتها وتتأقلم معها، وأن تجد فيها ما يواسيها كما تقولين، بينما لا أجدني قادرة على هذا.. وهذا ما أعنيه!

احترت في الرد على ما ذكرته، فتلك قصتي مع ذاتي وبعض أسئلتي التي

أرهقتني منذ مدة، فأنا لست مثالية كما يخيل لها أو لسواها، المسألة تتعلق بمحاولة الصمود والتأقلم لأطول مدة مع إخفاء الكثير من الإرهاق والإحباط، تلك القدرة التي تحمل الآخرين لمهابتنا وتعظيم قوتنا التي هي في الواقع مجرد قناع نخفي خلفه عيوبنا وضعفنا ومواجعنا، فذلك الاحترام يساعدنا على المزيد من التماسك والاستمرار في السيطرة على حطامنا خلف ذلك القناع الصلد.

حاولت أن أبدو متجاوبة ولا أزال قادرة على التفسير، فقلت لها:

– الأمر يتعلق بالإرادة والرغبة. وهذا أمر ذاتي!

قالت بلهجة أبوية:

– حبيبتي أمل، الرغبة والإرادة هي حصتنا من القدر، هناك من يملك حصة كافية للصبر والتأقلم، وهناك من يعجز، وهذا ما يجعل حكاياتنا تختلف ولو تشابهت!

وتابعت:

– هناك شيء من اللا منطق في رؤوس الناس دائمًا، فأنا مثلًا لا أستطيع أن أفهم عقلية أولئك الذين لديهم الاستعداد لتقبل فكرة الفروق الفردية في القدرات الذهنية، بينما يرفضون فكرة الفروق الفردية في القدرات النفسية أو غيرها، فلو قبلنا جدلًا فكرة الفروق الفردية في مستوى التلاميذ مثلًا، فمن الحماقة أن نرفض تطبيق الفكرة على سواها من الحالات، أعني إما أن نتقبل

فكرة وجود أشخاص غير قادرين على القيام بما يفعله الآخرون دون إرجاء ذلك إلى رغبتهم، أو نرفض الفكرة ولكن لا نخصصها لفئة دون أخرى.

هالتني تلك الكلمات التي قرعت جمجمتي بقوة وجابت دهاليز عقلي في لحظات، هناك شيء ما يشدني إلى هذه الفتاة منذ عرفتها، لكنني لم أدرك السبب غير الآن، إننا نتشابه في كثير من صفات تفكيرنا، وكأننا نسير على منهج واحد، لكنني حتى الآن أحاول التبرؤ من هذه الحقيقة لظني أن اعترافي بها سيزيدها بعدًا عن واقع الحياة الذي يتطلب الكثير من التجاهل!

حاولت أن أواصل محاورتها برؤية شخص آخر لا يؤمن بشيء مما تقول، فقلت لها مبدية عجبي لطريقة تفسيرها للأمر:

– حسنًا. لنفرض ذلك.. هل يعني هذا أن نستسلم للأقدار كي تتقاذفنا رياحها دون أن نحاول شيئًا، أرى في تفسيرك قدرًا من الاستسلام واليأس، وهذا لا يليق بالإنسان الذي يملك الإيمان والأمل.

وواصلت– وقد منحتني كلماتي مسحة ثقة عابرة تكفي لبعض الوقت– قائلة:

– قد تبدو حكاياتنا ذات طابع كريه ونظن أن هذا كل ما لنا، ولكن إذا حاولنا أن نغير شيئًا، أو نبذل بعض الجهد لتجميلها لبدت أفضل.

ثم نظرت إليها، وقلت مستنكرة:

- هل تظني أن محاولة التغيير للأفضل يمكن أن تذهب سدًى دونما فائدة؟!

ضحكت ببرود، وقالت:

- ها أنت تحاولين القيام بدور المحاضرة التي ألقت علينا منذ قليل، بعض الكلمات الرنانة لأقتنع بأن سلسلة النكسات والأوجاع المتصلة منذ الصغر قد تتبدد الآن لمجرد أن أنظر في المرآة كل يوم وأردد بحماقة: أنا أسعد امرأة!

وأردفت- بلهجة ساخرة:

- لست على أية حال مريضة بالاكتئاب والسوداوية، إنما قد وصلت إلى هذا الحد من السأم بعدما بذلت الكثير من المحاولات المضنية، أنا لست ذات طبيعة انهزامية، وها قد رأيتني بنفسك أقضي ساعتين تحت كلمات المحاضرة المتخمة بالأفكار الإيجابية كما تدعي، ولكن كما تعلمين هناك لحظات لا يمكنك فيها القيام بشيء سوى ترك الأقدار تفعل ما تريد، كالموت مثلًا!

ابتسمت بهدوء حينما قرأت في وجهي الإحباط، وواصلت الحديث لتحملني على مرافقتها في طريق الذكرى- قائلة:

- هل تظني أن زواجي من رجل كهذا كان أمرًا هينًا رغم كل ما كنت أعيشه من عذاب يجعلني في نظر الآخرين أرى فرصة كتلك طوق نجاة أو جواز مرور إلى عالم السعادة؟.

قلت لها بتفهم:

– حبيبتي، أعي تمامًا صعوبة الأمر.. لكنك اليوم زوجة وأم لطفلين، من العذاب أن تواصلي الرفض حتى هذا الوقت، ربما عليك أن تتقبلي قدرك بامتنان.

وتوقفت قليلًا وأنا أحاول استرجاع كلمات عبرت رأسي فجأة، ثم تابعت:

– هل أخبرك بشيء؟ لقد قال لي أحدهم ذات مرة.. كي تتمكني من تجاوز ألم عظيم في حياتك لا بد أن تتقبليه بامتنان وعندئذ سوف يتلاشى.

علقت باستهجان:

يتلاشى!.. ويتلاشى هو أيضًا! فالألم يبدو لي في صورته، لا بد أن ذلك الحكيم كان ضحية لبرامج التنمية البشرية!

قلت لها بدهشة: ألهذا الحد لا تحبينه؟!

أجابت بلا مبالاة:

– دعيني أحدثك عنه قليلًا مادمنا وصلنا إليه، تعلمين أننا عند كل بداية نبذل كل جهودنا لنبدو مثاليين، نعطي أفضل ما لدينا، نتصرف بأكبر قدر من اللطف واللباقة، نتجاوز كثيرًا عن الأخطاء، ونعفو عن كثير لأننا نرغب أن تمضي حياتنا جميلة كما نتصورها في أحلامنا الوردية دون مشكلات، دون غضب وحزن وألم. ثم تبدأ الأخطاء في التكرار والتفاقم

ونفقد السيطرة على أفعالنا، فنبدأ بالتذمر والاعتراض، ثم يتطور الأمر ونعبر عن امتعاضنا ورفضنا بالصراخ أو التجريح أو الاستفزاز أو بأية طريقة موجعة؛ لنخفف من وطأة الجراح المتراكمة في الداخل لسبب وحيد أننا لم نحصل على تقدير لكل تلك الجهود، بل مزيدًا من الضغط وربما الاستغلال، فاللطف يحمل معظم الناس إلى فهمك بطريقة مجحفة تبيح الإساءة إليك وامتصاص طاقتك؛ لأنك في النهاية سوف تتجاوزين وتصفحين كما يعلمون، لذلك لا تملكين في النهاية إلا إسقاط قناع التجمل عن وجهك لتظهري لهم بمظهر كريه ليسوا بانتظاره ولم يتوقعونه منك، وجهك الغاضب، العابس، المتجهم.

ثم قالت وهي تلتقط أنفاسها المتتابعة من شدة التوتر الذي اعتراها لتستعيد هدوءها:

– قد تكون هذه خلاصة ما يحدث لي.

وتنهدت بمرارة، وواصلت:

– حين أبدى رغبته في خطبتي شعرت بسعادة غامرة رغم تقدم عمره، حدثت نفسي بلسان المنطق والمجتمع، قلت لها: ها أنت قد تقدم بك العمر وفقدت كل من يواسيك أو يخفف عنك شعورك بالوحدة، لو أنك اعترضت مجددًا سيرحل بك العمر إلى سنوات أخرى تبعدك عن أنظار

الراغبين في شراكة الحياة معك، اليوم وفي مثل هذا العمر يطلبك للزواج رجل بهذا السن، فما الذي تتوقعينه بعد عام أو عامين أو أكثر؟!

كنت أعيش سنوات من الانكفاء على الذات بحيث استمرت أفكاري رجعية وبالية لا تتواءم مع الزمن الذي أعيشه، ظننت أن الناس لا زالوا يفكرون بتلك الطريقة البدائية، وأن الرجال مازالوا يعتمدون على آراء أمهاتهم وأخواتهم اللاتي يصعب إرضاءهن في اختيار الزوجات، لم أستوعب مقدار الانفتاح الذي حدث ومدى تأثير العولمة والوظائف المختلطة والبرامج التلفزيونية على نظرة الناس رغم ولوجي إلى ذلك العالم، ولكن لسوء الحظ أنه التقطني منه مبكرًا.

تجاهلت قصة إحدى قريباتي التي تزوجت في الخامسة والأربعين وهي مطلقة وأم؛ شابًّا في الثالثة والعشرين، ولم يكن لها مجرد عاشق بل أشبه بالعبد المملوك لشدة ما يظهره لها من وَلَهٍ وطاعة، تجاهلتها لأني أدرك تمامًا أنني لن أتسكع في الأسواق، وأهاتف هذا وذاك، ثم لا أتعفف عن إقامة علاقة آثمة مع شاب غرٍّ يفتقد للحنان من أجل أن أستولي عليه وأغيظ به من عيروني بانحرافي أو طلاقي أو لهوي. لو أنني بقيت في صومعتي مائة سنة أخرى فلن أفعل، ولذلك فلن أجد من يحبني أو يرى فيّ ما يشبع شيئًا في نفسه. أنا بسيطة، بسيطة جدًّا. والناس لا تلتفت إلى البسطاء كما تدعي الأساطير والحكايات العتيقة. لكنني أتمزق ألمًا كلما تذكرت أن تلك المرأة حصلت في النهاية على

حفل زفاف فاخر، وارتدت ثوبًا أبيضَ وزفتها الزغاريد والورود، بينما رحلت إلى معتقلي الجديد بثيابي العادية في صمت كآثمة.

قلت لنفسي:

– انظري إلى مزاياه، قد يكون مسنًّا، ولكن هذا يعوضك عن سنوات اليتم التي لم تتمكني فيها من الاستمتاع بحنان أب رحل مبكرًا، إنك بحاجة إلى رجل يقوم بكل الأدوار الفارغة في حياتك وها هو ذا، يبدو لطيفًا، في عينيه نظرات إعجاب لم تريها منذ سنين طويلة، ومن النادر أن يعجب رجل كبير بفتاة تصغره فهو يتطلع لامرأة بمواصفات لم تعد متوافرة، مواصفات زمن ذهب بلا عودة، ثم إنه يبدو ميسورًا وأنت بحاجة لمن يعوضك عن حياة البؤس التي أرغمت على استمرائها لأنك لم تجدي من يذود عن حقك الذاهب إلى أيدي الآخرين وجيوبهم كي يتمتعوا به بكل بذخ، وكأنما هناك ثأر قديم يحرضهم على المبالغة في ذلك أمامك إمعانًا في كسرك وإثارة غيظك.

تابعت وقد بدأت تضعف أمام مشاعر الحزن التي حاولت مقاومتها كثيرًا:

– أنت بحاجة إلى رجل مثقف تعتزين بشراكته لك، تتعلمين منه ويدفعك ذلك إلى تطوير ذاتك كي تظلي لائقة بتلك الشراكة؛ فتنعكس على أبنائك لاحقًا.

مُسنٌّ.. يعني حتمًا سيكون حنونًا بما يكفي حاجتك السحيقة إلى ذلك،

هادئ لا يحب الصخب ولا تخشين أن تخطفه فتاة أجمل وأصغر مستغلة فورة شبابه وقلة خبرته ونواقصك الشخصية.

التفتت نحوي- وهي تقول:

- فكرت في كل المزايا المحتملة؛ ولذلك قبلت، وِشعرت حينها أنني أعود طفلة تركض بأقصى سرعتها نحو والدها المتغيب عنها زمنًا؛ لتحصل على حصتها المتراكمة من الدفء والحب. لكنني فوجئت عندما حان الوقت بما لم أفكر فيه مطلقًا، رغم كونه أهم ما كان يجب علي التفكير به.

لقد تناولته بصورة خاطئة، بعقل الطفلة التي افتقدت والدها طوال سنين، وظلت بانتظاره كما لو أنها متيقنة من عودته يومًا، الحضن الأخير الذي لم يشبعها وظلت في توْقٍ إليه لا يفتر رغم مرور الزمن، وعندما ظهر هذا الرجل، وجدتني أسقط عليه صورة والدي دونما وعي أو إدراك، فكل ما فكرت فيه هو أن أحصل على ذلك الحضن ليعود إلي الشعور بالأمان الذي افتقدته طويلًا ولو للحظات.

سالت دموعها بحرارة- وهي تقاوم رعشة شفتيها- وتواصل:

- لقد وجدت رجلًا آخر، لا ينظر إلي بعيني والدي، لا يرغب أن يعطيني ما وددته من والدي، كان رجلًا كأي رجل يبحث عن أنثى، قرعت كلماته في أذني لتوقظني من حلمي الجميل حينما قال إنه يرغب بأطفال، شعرت وكأنه ينزعني من عالمي البريء إلى عالم آخر أصخب وأصعب، أشعر فيه

بالغربة والضياع والخوف، استيقظت على واقع مختلف تمامًا، وشعرت وكأني طفلة تحولت في ليلة إلى سيدة في الأربعين دونما مقدمات.

التقطتْ منديلًا ومسحت به دموعها دون اكتراث، وتابعت:

- أدركت أنني وحدي، لا ملاذ لي سوى الانسجام مع كل ما يحدث فهو واقع على أية حال، شعرت بالاشمئزاز لا أدري مني أو منه، بكيت طويلًا، ومجددًا شعرت أني مضطرة للبكاء وحدي.

بعد عدة أيام.. استطعت أقناع نفسي بواقعي الجديد، لكنه لم يتقبل ما مررت به، وبدا منزعجًا، لم تمض أيام حتى ترك المنزل متذرعًا بمهمة عمل طارئة، ورحل ليتركني مع أفكاري وشتاتي.

وتابعت:

- شعرت بالقلق في الوهلة الأولى، خشيت ألا يعود فأنا أخشى الوحدة، وجدتني أهرع للاتصال به عدة مرات قبل أن يجيب لأطمئن عليه، وفي نفسي كنت أطمئنها هي.

واصلت- وهي تمعن النظر في الفراغ:

- حاولت أن أحبه وأرى حسناته ومواطن الجمال في ذاته، لكن الحياة تظهر ما يكفي من الخفايا؛ لترغمنا على التألم والمعاناة.

قلت لها- وأنا أنهض لطلب كوبين من القهوة:

- أما زلت تحبين الكابتشينو؟. فابتسمت بإرهاق وهزت رأسها بالإيجاب.

التاسعة وخمس دقائق..

ربما كانت تلك محاولة لا شعورية مني للخروج من مأزق الحوار العصيب، إنها تهزمني في لحظات كثيرة وتعقد لساني بكلماتها، ليست كالكثير من الفتيات التي يمكنني تحويل مسار أفكارها الخاضعة للعاطفة والحساسية، إنها عاطفية وحساسة، لكنها منطقية أيضًا، حاولت كثيرًا خلال ذلك الحوار أن أستجمع تركيزي، فأنا أتوه ما بيني وبينها كلما تحدثت، لا تشبهني تفاصيل حياتها وإنما أفكارها.

أخذت أدق أطراف أصابعي بخفة على رف الكشك المخصص لبيع المشروبات أثناء انتظاري للعاملة وهي تعد الطلب، بينما ألتفت ما بين فينة وأخرى نحو «منال»؛ لأطمئنها بابتسامة، لكني لا أزال في حالة شرود وتذبذب، لقد كانت فكرة طارئة تمكنني من الخروج عن دائرة الحوار المغلقة لأفكر وحدي ولو لدقائق، فربما أعود إليها لأحمل مع قهوتها المفضلة ما يريحها سواء أكان فكرة أو تحليلًا أو أي شيء تجود به ذاكرتي أو خاطري، وانتبهت إلى صوت العاملة وهي تبتسم أمام ارتباكي من ندائها الذي نفر طيور أفكاري الحائمة فوق رأسي وقد كاد أن يحط بعضها لينقذني!

obeikan.com

أطلقت زفرة خافتة، وأنا أحمل الكوبين إلى الطاولة التي تجمعني بـ «منال».

قلت لها بود- وأنا أمد إليها الكابتشينو:

- ها هو كوبك المفضل، ما زلت أذكر التفاصيل الصغيرة!

شكرتني- وهي تعلق قائلة:

- هذا من دواعي سروري، فأنا أعلم أنك لا تذكرين التفاصيل لأي أحد.

قبضت على يدها بلطف، وقلت:

- أنت من أولئك الخواص!

كانت فرصة جيدة للتوقف عن سرد الحكاية، شكرت في سري ذلك الصمت الذي لف الطاولة فجأة، إننا بحاجة لالتقاط الأنفاس ما بين وقت وآخر لنحرر صدورنا من الضيق المتراكم بقليل من الهواء النقي.

سألتني وأنا أداعب قطة مرت بجوارنا، وأخذت تدلك جسدها بين ساقي: ما زلت تحبين القطط؟

ابتسمت، وأنا أقول:

- تعلمين أنني أحب الحيوانات عمومًا، القطط كائنات لطيفة، ربما تأثرت كثيرًا بقصص الكارتون التي كنت أشاهدها حينما كنت طفلة، لطالما أحببت تلك الطبيعة وحلمت أن أحيا في كوخ خشبي وسط الغابة ومعي

obeikan.com

مجموعة من الحيوانات المتكلمة!

وضحكنا معًا على تلك الأفكار الخيالية، ثم قلت بجدية:

- حين نكون أطفالًا لا ندرك معنى المستحيل؛ حيث نظن أن كل شيء ممكن في هذه الحياة، وكلما مر الوقت نصبح أكثر فهمًا، وحقيقة لا أدري إن كنا في سن الطفولة أكثر واقعية مما نحن عليه في كبرنا، يساورني شك في الأمر أحيانًا؛ حيث أن المستحيل عادة يأتينا في صورة تعليمات ممن يكبرنا دونما تفسير واضح فنأخذها كما هي ونؤمن بها ونعلمها لمن بعدنا، لقد اعتدنا أن حديث الكبار مقدس لا يحتمل التشكيك، رغم أنه كذلك أحيانًا!

ابتسمت- وهي تعقب:

- معك حق فيما تقولين، ولكن لا أظن أن هناك حيوانات تتكلم على أية حال!

بادلتها الابتسام- وأنا أقول:

- إنها مجرد أفكار، دعيني للجنون قليلًا!

ضحكت، ثم قالت:

- كنت أحب الجنون أحيانًا رغم أني لم أمارسه، ظللت طويلًا أظن أنها قد تواتيني فرصة أعيش فيها بعض الجنون، أقود دراجة في الطريق وحدي، ألعب في مراجيح الأطفال، أتسلق جبلًا، أو ألقي بجسدي في

عمق البحر لأغوص!

قلت لها- وأنا أعود إلى حوارنا السابق:

- حين بدأت تقصين علي حكايتك قلت لنفسي لن أحاول طرح أسئلة خاصة، لكنني مع الوقت أجد على لساني سؤالًا مُلحًّا.

قالت:

- لا بأس.. اسألي ما بدا لك، ليس هناك ما أخفيه عنك.

فقلت لها:

- ربما حان الوقت لأعرف كيف وصل هذا الرجل إلى طريقك- واستدركت- آسفة إن كان سؤالي محرجًا، لكنني أحاول الوصول إلى شيء ما لا أعرفه حتى الآن.

قالت لي بعد زفرة طويلة:

- كانت محض مصادفة، لم تكن فرصة جيدة على كل حال، فقد عرفني حين كنت مرافقة في المستشفى، بينما كان مسئولًا للقسم المالي هناك، حينها كنت في حالة يرثى لها من الهلع والخوف، لابد أن وضعي في ذلك الوقت كان مُزرٍ لكل من يراني، شعرت أنني أفقد الأمان وأعيش حالة ضياع، وأفكر في ذات الوقت كيف لي بسداد تكاليف المستشفى فهي لا بد أن تكون باهظة. في لحظات أدركت أهمية العمل ومدى الحاجة، وحجم الفراغ في حياتي

وأنا أجوب الممر المؤدي إلى موظف الاستقبال قبل أن أستجمع شجاعتي وأساله عن التكاليف وما إذا كان بالإمكان سدادها بصورة أقساط حين تقدم نحوي بهدوء وسألني عن الأمر، لا أذكر كيف أجبت فقد حاولت تمالك نفسي ولم أفلح. كان صوته هادئًا ومظهره الجاد يوحي بالأمان، استطعت أن أهدأ بعد لحظات حين دعاني إلى مكتبه ووجه لي بعض الأسئلة، شعرت بأنه يقرأني جيدًا، سألني عن أسرتي، عن إمكانية السداد وأمور أخرى تبدو ذات صلة بالأمر لكنها تحمل إليه إجابات عن أسئلة تخصني لم أفهم مغزاها.

كنت هشة جدًّا وشعرت أنه ظهر ليحتمل العبء عني، أو كنت بحاجة لأن أشعر بذلك، ظل يهتم بالأمر ويتابع، وبدأت أشعر نحوه بالحاجة وبت أفتقده إن لم يمر بالحجرة التي أقضي فيها الوقت كاملًا؛ حتى حفظت تفاصيلها وأصبحت رائحتها تصيبني بالغثيان، وكأنما هي حالة رفض للمكوث في مكان مؤسف كذلك، أصبحت أنتظر كلماته التي تسري في رأسي كمخدر للألم وتبعث في السكينة، شعرت أن هناك شخصًا أرسلته الأقدار إلي، ولن يتخلي عني في مثل ذلك الموقف وإن لم يعلن عن ذلك صراحة.

لاحقًا تلقيت منه عرضًا كريمًا للعمل في مكتبه؛ لأحصل على المال الكافي لسداد مصاريف المستشفى، لم يكن أمامي سوى القبول رغم علمي بأنني في حاجة لمدة طويلة قبل أن أنسجم مع جو العمل أو أكون قادرة حقًّا على أدائه على نحو مناسب، ووجدته يشجعني ويثني على كل ما أقوم به

لدرجة أنني أصبت بالشك في تقديري لذاتي وقدراتي خاصة وقد أصبحت أقرأ الغيرة والغيظ في أحداق بعض الموظفات الأخريات في ذات القسم الذي أعمل به.

لا أخفيك فقد فكرت بأن كل ذلك كان يبدو لي مجرد تودد من رجل يحاول تكبيلي بالمنن كي أفقد جرأتي على رفض ما يطلبه مني لاحقًا، وبما أنني لم أشعر في تعامله بريبة فلم يدر في حسباني سوى ذات الأمر الذي كان يفكر فيه. وكما تعلمين أننا بفطرتنا نستطيع أن نقرأ بعض النوايا بمجرد النظر إلى عيون الآخرين أو طريقة تعاملهم، خاصة إذا كانت تتميز عنها مع الآخرين، وهكذا كان الأمر.

وبدت وكأنها تنزع الكلمات من فمها نزعًا- وهي تقول بصوت متهدج:

- في اللحظة المناسبة الحالكة من حياتي طرح علي عرضًا للزواج السري، كان يدرك أنه أسقط في يدي وبت أفقد كل شيء، قال لي بإنه شيء مشروع ومناسب لكلينا، وفهمت من كلماته الغامضة التي تخفي كبرياء واضحًا أنه لا يحب أن يكون مثارًا لتعليقات النساء وهو يسير معي في لحظات الزفاف، وفكرت أنني أيضًا لم أعد بحاجة إلى احتفال كالذي تقيمه الفتيات لزفافهن عادة؛ حيث أني لا أجد من حولي أحدًا يمكن أن يشاركني تلك اللحظات إلا للتندر والبحث عن مادة دسمة للحديث السخيف في جلسات الشاي وزيارات النميمة. قلت لنفسي إنني أحتاج

فقط للهدوء بجوار رجل أقنعه رغم عيوبي ويمكنه حمايتي، وحين عدت للمنزل ولفتني الوحشة رحت أفكر مليًّا في الأمر، وعادت بعض كلماته تومض كنيران قنابل مدوية في رأسي، لقد كان يشعر بخوفي وترددي رغم كل ما أمر به من ألم ووحدة، ولذلك فلم ينس أن يلوح لي بصعوبة بقائي في العمل إن لم أكن أرغب في القبول، قالها بطريقة أشعرتني بأن هذا الرجل الذي أراه ملاكًا لا يخلو من قدر من الخبث.

شعرت بالفضول، وسألتها متعجلة إكمال القصة:

- كيف قالها؟!

ابتسمت بسخرية يائسة، وقالت:

- قال لي ببساطة إنه من الصعب أن يراني فيما بعد فيتذكر أنني رفضت طلبه وحطمت فؤاده، وسرعان ما استدرك الأمر ليقول: وربما تجدين واحدة مكانك فيوجعك الندم!

إنه رجل يعتز بنفسه كثيرًا، ويبدو أنه ليس سهلًا بالفعل، قلت هذا وقد غالبني شعور سلبي نحو هذا الرجل الذي لا أعرفه، ولكنه في النهاية يؤلم أقرب صديقاتي.

قالت لي- وقد شعرت بغيظي:

- شعرت بأن الأمر لم يعد مساعدة بل مساومة، وعدت أسترجع كل كلمة قالها فأجد من بينها كلمات صغيرة لكنها تحمل الكثير من الغموض

وتدعو للارتياب.

قال لي مثلًا إنه يحب المرأة التي تعتني بشؤون المنزل، وتعد له طعامه قبل عودته من العمل، وأشار في معرض حديثه إلى أحد أصدقائه الذي طلق زوجته بعد أسبوع من الزواج؛ لأنها لم تكن تطهو طعامه، بل تطلب منه في كل مرة أن يأتيها بوجبة من المطعم!

حدقت في وجهها بصمت، ودار شيء بخلدي لا أدري سببه، فوجدتها تبتسم لي، وتقول متابعة:

– كان استشهادًا سخيفًا، وكما تعلمين فأنا أفقد السيطرة على انفعالاتي أحيانًا، وربما شعر حينها بأنه لم يكن مناسبًا ذكر تلك القصة، لكن المريب في الأمر لمحة الندم التي قرأتها في عينيه وكأنما ارتكب خطأ فادحًا!

لم يكن الأمر يستحق ذلك الذي قرأته في وجهه إن كان مجرد استشهاد غبي، لكن الحقيقة أن لسانه جره إلى الكشف عن جانب من حياته الخفية!

قلت لها باستنكار:

– هل كانت قصته؟!

التفتت نحوي وقد ملأها اليقين في قدرتي على الفهم، وقالت:

– شعرت بذلك، وحاولت ألا أتطرف في استجلاء نيته، لكنني لم أجد معنى آخر لمسحة الندم التي كست وجهه آنذاك. لكن قررت أن أتجاهل

ظنوني كلها وألتفت إلى ما أسمعه بأذني فقط. قررت الانفصال عن شعوري الذي طالما أسقمني وكشف لي عن الكثير من مساوئ الآخرين فلم أستطع مجاراتهم ولا هضمهم؛ فعشت في عزلة.

كنت أنصت إلى كلماتها وأشعر بها تلامس قلبي وعقلي، فقلت لها:

– الطيبون يا «منال» هم الوحيدون الذين يقعون في هذا الخطأ.

صمتت وأخذت تنصت إلى تعليقي، بينما تابعت أنا:

– في كثير من الأوقات أصل إلى حقيقة مفادها أننا بحاجة إلى بعض الغباء وبعض السوء والمكر حتى يمكننا العيش بسلام في هذا العالم، لكنني لا أخفيك قولًا، فسرعان ما أتخلى عن هذه الأفكار الشيطانية؛ فهي لا تتفق مع معتقداتي.

ابتسمت قليلًا، ثم قالت:

– ألا ترين أننا نغرد خارج السرب، وكأننا لم ننته توًّا من محاضرة طويلة في المثاليات والأحلام الأفلاطونية والقدرات الخارقة.

سألتها:

– هل تتابعين هذه المحاضرات عادة؟

قالت:

– يمكنني أن أقول أنها جزء من محاولاتي الفاشلة في التغيير.

قلت بلهجة مدربي التنمية البشرية:

- يمكنك التغيير حقًّا إن أردت.

ردَّت- وهي تنكر تعليقي:

- هذه القاعدة تبدو لي منقوصة، فجميعنا نود التغيير، ولكن.. هناك مشكلة ما في استحضار الإرادة.. ربما.

سخرت من نفسي- وأنا أقول لها:

- أعني أن تستمري في المحاولة، أحيانًا يحتاج الأمر إلى وقت.

قالت هازئة:

- بعد إحدى المحاضرات عدت ممتلئة بما استمعت إليه خلالها، ولدَيَّ الكثير من القناعة فيما قالته المدربة، كانت تتحدث عن ضرورة المصارحة بين الشركاء، فقررت أن أجربها معه، وبت أتحين الفرصة لها.

وفي إحدى الليالي ونحن نتبادل أطراف الحديث حول المائدة، أخبرته بأنني أخاف الوحدة، قلت له إنني أعاني بسبب تغيبه المتواصل عن المنزل، بسبب قلة حديثه معي، بسبب عدم رغبته الاستماع لهمومي، قلت له إنني بحاجة أن أشكو له عن مخاوفي وأوجاعي فهو يمثل لي كل شيء، ولا أملك سواه ليسمعني، فكان رده صاعقًا.. لا أذكر ما الذي قاله حرفيًّا - فقد كان الأمر أشبه بضربة مفاجئة كفيلة بأن تفقدك الوعي- ولكنه في مجمله

obeikan.com

كان يعني أن علي أن أكون أكثر امتنانًا؛ لأنه اختارني دونًا عن غيري، فحياتي من قبله كانت أشبه بالعدم ومن العار أن أتناسى ذلك!

وتابعت:

– شعرت بالخرس، فذلك ما لم أتوقع سماعه أبدًا، شعرت بالدونية، إلى أي حد أبدو صغيرة في عينيه بعدما كنت لا أرى فيهما غيري قبل الزواج، بالطبع لاحظت مقدار التغير في تعامله معي إلا أنني لم أكن أدري ما صرت إليه بعدما امتلكني، كلماته حطمت قلبي. ولم تمض مدة حتى دار حوار مماثل حاولت فيه أن أكون أكثر توسلًا ورجاء، فكان رده أكثر قسوة؛ حيث قال لي أنه لا يمانع من تسريحي إن لم أكن متقبلة للحياة معه كما هي.

كان جوابه أشبه بمن وجد فرصة للتملص من اتفاق بغيض يزيده إرهاقًا وملالًا. ولم أصدق، فأنا لا أحاول أن أبدي له مخاوفي وبؤسي، وكعادتي التي تعلمين أبتلع همومي في نفسي وأجتهد في إظهار بشاشتي ولطفي، ولكن لا أدري كيف وصل إلى تلك المرحلة القصوى من الاكتفاء ليلوح لي بالانفصال بتلك البساطة.

أحيانًا حين أسترجع هذه الذكرى أقول لنفسي، ربما فشلت في إخفاء اضطرابي ومعاناتي فاستطاع قراءتها، وربما هو أذكى مما أتصور بحيث استطاع بفطنته قراءة ما تخفيه نفسي على صفحة وجهي، وربما..

– وربما منحتِه كل ما يريد فاكتفى!

– هذا أيضًا مما فكرت فيه، فأنا أعطي ببذخ كل ما عندي وما إن أتوقف أفقد كل شيء وأعير بالخواء. إنه شيء أشبه بسوء استغلال الموارد.

معك حق، إنني أعاني هذه المشكلة أيضًا في بعض الأحيان، وأتوقع أنها ليست مشكلتنا فقط، إننا نحاول أن نكون أسخياء ظنًّا منا أن الآخرين سيقدرون ذلك، ويكونوا على قدر مماثل في عطائهم لنا إلا أنهم يزدادون جشعًا واستغلالًا، ويظنون أننا نفعل ذلك لسوء إدراكنا بما لدينا، أعني أنهم يتعاملون معنا كالسفيه الذي يسيء استخدام ما يملك، وبالتالي فمن الذكاء اختلاس أكبر قدر منه قبل أن يذهب لأشخاص آخرين أكثر فطنة وقدرة على اقتناصه.

وسرحت في وجهها قليلًا، وقد شعرت أنني أخذت منحى جانبيًّا للقصة، فتنحنحت، وقلت:

– حسنًا.. بعد الحوار الأخير الذي حدث بينكما.. ما الذي حدث؟!

أجابت بإحباط:

– لم أكن أملك سوى الصمت، بل والاعتذار بعدما شعرت أن أيامًا مضت في جفاء واضح. أدركت بأني دخلت في منعطف التنازلات، فأنا لا أملك بديلًا. كان يغادر المنزل فأظل أبكي وأبكي وأبكي، أصرخ أحيانًا

وأنادي والدي، أشكو له ما يحدث لي ولا يجيبني سوى الصدى المرتد عن صراخي؛ لأزداد ألمًا ووحشة. لا أدري ما الذي كان يدفعني لذلك.. أهو نوع من الجنون أم الفراغ أو الحاجة لمن يقف معي في مثل تلك الظروف.

وذات ليلة وبعد ساعات من البكاء، غفوت قليلًا لأصحو وأنا أتمزق من الألم، لم أكن أدري كيف أتصرف، اتصلت به بعدما وصلت إلى الهاتف بصعوبة فإذا بهاتفه مغلق؛ حيث اعتاد على إغلاقه في الليل حين يبيت في بيته الآخر، ولأول مرة في حياتي أخرج إلى الشارع في الليل وحدي لأطلب أي سيارة تأخذني إلى المستشفى، وأنا لا أكاد أهتدي للطريق من شدة الألم. وهناك علمت أنني حامل؛ حيث كان الجنين مهددًا بالإجهاض!

لم أستطع وصف شعوري في ذلك الوقت، لم أعرف هل يجب علي أن أكون سعيدة لكوني أقترب من تحقيق حلم الأمومة، أم لسلامة الجنين الذي كان سيقتله حزني وكأنما كان يشاركني شعوري، فلم يحتمل لضعفه فكاد يموت، أم عليّ أن أخشى من عبء إضافي ومتاعب جديدة مع قدوم هذا الطفل.

وفكرت.. كيف سيمر بقية الوقت حتى يخرج إلى الدنيا، كيف سأمارس حياتي، ما الذي يمكن أن يحدث إذا فاجأني المخاض ولم يكن والده معي مجددًا، وأخذت أبكي وأحاول تهدئة نفسي في ذات الوقت.

وشردت بنظرها- وهي تقول:

- ربما لو كان معي في تلك اللحظة لاستطعت أن أشعر ببعض السعادة ولو لدقائق، لكني كنت وحدي، كعادتي في كل المواقف المهمة في حياتي لا أجد إلى جواري أحدًا.

ومددت يدي نحوها لأقبض على ساعدها بهدوء؛ تعبيرًا عن وجودي إلى جوارها، فابتسمت ابتسامة حزينة، وتابعت:

- حين علم في اليوم التالي.. اتصل بي مطمئنًا بكلمات مقتضبة، ثم أغلق الهاتف. بالطبع لم يعد أمرًا كهذا مصدر بهجة أو دهشة بالنسبة له، فقد تكرر بلا شك مع كل حمل لأحد أبنائه من زوجته الأولى. لم أكن أعرف ما الذي علي أن أشعر به مجددًا، لا أستطيع الفرح، لقد زاد خوفي؛ فهناك طفل في الطريق يحتاج هو الآخر للحب والأمان الذي لم أحصل عليه. فكرت في مدى قدرتي على حماية هذا القادم الجديد، وما إذا كنت أستطيع القيام بدوري كأم أم أنني أفتقد القدرة على ذلك، فكلما استعدت حياتي الماضية لم أجد للأمومة دورًا سوى القيام بأعمال المنزل ورعاية الأبناء بطريقة آلية باردة، كانت الأمومة التي أراها مجرد وظيفة خالية من الشعور، لم تكن في حياتنا روح، كانت مشاعرنا مكبلة، وعواطفنا مكبوتة، لم نشعر بالحب ولا استطعنا أن نقدمه لبعضنا.

ثم قالت ساخرة، وكأنما تذكرت مقولة شخص ما:

- «فاقد الشيء لا يعطيه»!

وراحت تحاول إيضاح ما مرت به- قائلة:

- قد يكون حالنا المشترك هو ما خفف عني وطأة الأسى، فأصبحت أحدثه وكأنه أمامي يجلس منصتًا فأحكي له مرة عن ذكرياتي، ومرة عن آمالي، ومرة عن مخاوفي، اقرأ له أحيانًا بعض السور ليحفظه الله، وأخبره في نهاية كل حديث أنني أحبه وأحتاج أن يحبني؛ لأنني لم أحصل على الحب في حياتي. أحيانًا أسخر من نفسي بعدما أفضي له بهذا الحديث، فأنا لا أعلم إن كانت نظرية وعي الجنين بما يدور حوله صحيحة أم أنها مجرد تخرصات، وأحيانًا ألوم نفسي لأنني أطلب منه الحب بينما أنا من يجب أن يوفره له. لكني لم أحصل عليه، فظللت فارغة إلى الحد الذي يجعلني أتسوله من جنين لم يكتمل بعد في أحشائي.

ونظرت إلي- وهي تسألني باهتمام:

- هل يحب أن نحصل على الحب لنعيش؟. وراحت تجيب بطريقتها:

- في بعض الأحيان يخالجني شعور أن تلك الحاجة مجرد مدخل للضعف والانكسار، ولا تعدو أن تكون مجرد فكرة للبحث عن الكمال الجمالي الذي نتصوره بخيالنا.

التقطت حقيبتي من المقعد المجاور لأوقف حديثها مرة أخرى، وتناولت منها قطعة شوكولاته كسرت منها جزءًا قدمته لها، وأنا أقول محاولة تلطيف أجواء الحديث:

– هذه الشوكولاتة التي اعتدنا تناولها في الماضي: ما زلت أحبها وأشتريها كلما ذهبت إلى المتجر المحلي أو حتى الجامعة.. أوه نسيت!

وتظاهرت بالحماس– وأنا أقول: ربما لم أجد فرصة لأخبرك عن إنجازي العظيم فقد عدت إلى مقاعد الدراسة مجددًا. واستطردتُ قائلة:

– تعلمين أن الفراغ قاتل ولست ممن يمضون الأوقات في التسكع بحثًا عن نظرات إعجاب مؤقتة سرعان ما تستحيل عبئًا ثقيلًا يقض المضجع ويقاوم النوم. دائمًا ما ظللت أحاول الابتعاد عن محاولات المجازفة مهما كانت صغيرة، ربما لأنني لا أرى أن بإمكاني احتمال ألم الفشل أيًّا كان.. لكن هذا النوع من الحذر شكل آخر من الفشل.

وعدت أتحدث عن الشوكولاتة لأبعدها أكثر عن دوامة الذكريات التي تحولت إلى طوفان من الهواجس والوساوس. قلت لها:

– قرأت مرارًا عن فوائد الشوكولاتة خاصة في حالات التوتر، وبرغم عدم قناعتي بالأمر إلا أن حقيبتي لا تخلو منها على أية حال، فأنا أحتفظ بها معي كي أقدمها لأطفال العائلة عندما أضطر لرؤيتهم، فكما تعلمين أنا

شحيحة في أمور التجمعات والتواصل، كما أني أستعين بها في الظروف المماثلة لما يجري الآن (قلتها مازحة) وتابعت: إنها على الأقل أفضل بكثير من العقاقير والأدوية المهدئة.

وربتّ على كفها- وأنا أقول:

- علينا أن نتمسك بإيماننا دائمًا. فكل ما يحدث منا مجرد ردود أفعال، ربما ينقصنا المزيد من الصبر والتماسك.

واندفعت من صدري زفرة- وأنا أتراجع بظهري لمسند المقعد- قلت بعدها في إحباط لم أستطع إخفاءه:

- أشعر أننا أصبحنا أكثر هشاشة مما ينبغي!

والتفت إليها لأسألها عن سر ضعفنا محاوِلَة تغيير مسار الحوار، لكنني قرأت في عينيها رغبة ملحة في التخفف من حديث جثم على صدرها أعوامًا، وها هي تجد فرصتها لتسريحه، فأومأت لها أن تتابع.

واصلت- وهي تحاول لملمة شتات أفكارها واستعادة هدوئها:

- مضت الأشهر في صمت، إلا من حديثي الفردي مع طفلي الذي لم يكن قد رأى النور بعد، أحيانًا كنت أخلد للنوم؛ لأرغم نفسي على الصمت؛ كيلا أثقله بهمومي قبل الأوان، هكذا هي الحياة، هناك من يتحمل عبء ما لم يقترف- كما يحدث معك الآن - وابتسمت وهي تقول ذلك في محاولة

غير مباشرة للاعتذار عن حالة الفوضى النفسية التي أوقعتني فيها، فبادرتها بابتسامة طمأنتها إلى تقبلي سير الحديث، وواصلت:

– لم أكن رأيت أحدًا من أسرته من قبل، لكنني وجدت بعضًا منهم حين أفقت من نومي بعد الولادة، شعرت لبرهة أنني في حالة موت، وتلك الأعين من حولي تراقب باهتمام لحظات خروج الروح، لم أتوقع مثلًا أن أجد حولي وجوهًا لفها التراب، أو وجوهًا لم تصلني في أية مناسبة سابقة ليعنيها التواجد في مناسبة كتلك، لكنني وددت أن أرى ولو وجهًا واحدًا يحبني.

لم أستطع أن أحتمل نظراتهم أو حتى وجودهم، وأغلقت عيني مجددًا، شعرت بألم في جسدي يفترض أن يكون أشد من كل الآلام، لكن ألم نفسي جراء ما قرأته في أعينهم كان أقسى بكثير، الاحتقار، التحدي، الغيظ، واللا شعور، وكأنني ارتكبت جرمًا يستدعي ذلك القتل الصامت. عرفت أن إحدى الواقفات حول السرير زوجته الأولى، لم تكن كما فهمت من حديثه تلك المرأة الكبيرة المريضة، بدت لي أكثر قوة وصلابة مني، وجميلة أيضًا. مرة أخرى تكشف لي الأيام كذبه. لقد كنت أعلم مسبقًا أنه تزوجها صغيرة لكن حديثه عنها شوَّه صورتها في نظري فبدت لي امرأة مسنة أنفت الحياة وتبدلت اهتماماتها إلى الاستعداد للحياة الأخرى. إنه بارع في الالتفاف حول الحقائق وتزييفها أيضًا.

ربما أصبحوا مضطرين لتقبلي بعدما أنجبت طفلًا لوالدهم. فالزواج يمكن أن يظل سرًّا حتى يثمر أبناء، وعندها لا يمكن أن يظل كذلك. لكن نظراتهم كانت كالسياط تجلد قلبي، لا يمكنني تفسيرها لكنها مؤلمة جدًّا. وفي تلك اللحظة العصيبة أحضرت لي الممرضة طفلي لأراه لأول مرة. وعدت أفتح عيني ببطء لآخذه إلي، كان وديعًا جدًّا، ولاحت في مخيلتي صورتي حين كنت طفلة وأنا أتأمل وجهه الصغير، وقد انفصلت عن كل ما حولي في تلك اللحظات. وقرع في خاطري سؤال عما قد يكون عليه قدره.

احتضنته بوهن وأغمضت عيني لأقتبس منه بعض القوة التي تسللت من جسدي طوال الساعات الماضية، وتناهت إلى سمعي أصوات مختلطة بدت كهمهمات، وكانت تحمل بعض عبارات التهنئة والتوديع المتعارف عليها في مثل تلك الظروف، وما إن فتحت عيني حتى وجدتهن يغادرن الحجرة دفعة واحدة، فانهمرت عيني بدموع لما أفهمها.. أكانت للألم الجسدي الذي يسيطر على أوصالي، أم لشعور الوحدة الذي عاودني فأحسست وكأنني تُرِكت في جزيرة منعزلة عن العالم لأقضي وقتي متوجعة خائفة مرتابة من المجهول.

سألت الممرضة عنه فأخبرتني بأنه حضر لبعض الوقت أثناء نومي وشاهد طفله ثم غادر !.

obeikan.com

وتقلصت ملامحها امتعاضًا لتلك الذكرى وتابعت..

- تعلمين ما يحدث على الأرجح في تلك الأحوال.. يحرص الزوج على البقاء بجوار زوجته، ويصلي من أجل خلاصها، يطير فرحًا بمولودهما ويظل يطمئنها، ثم يمضيان الوقت في الحديث عن ضيفهما الجديد ويقطعان باسمه الذي قضيا تسعة أشهر في البحث عنه من بين مئات الأسماء ليكون مميزًا وجميلًا.

لم يحدث كل هذا.. ولا أدري لم يحرص في كل موقف على تركي بمفردي، لدرجة أني بدأت أتشكك في دوري من كل ما يحدث لي، قد يكون هناك خطأ ما يحمله لفعل ذلك، أحيانًا يخطر لي أنني لست شيئًا مما كان يأمل أن يجده بي، وبالتالي فكل ما يحدث مما يزعجني منه مجرد ردة فعل غير مباشرة لرفضه هذا الكائن الذي خيب آماله، أو ربما.

قبضت على يدها لأثنيها عن المواصلة، وقلت لها:

- ينبغي أن تتوقفي عن جلد الذات، فليس المطلوب منك أن تكوني ملاكًا لتحصلي على إعجابه. فالمشكلة فيما يبدو تتعلق به ذاته، قد تكون تلك طبيعته، وقد تكون هذه طريقته في التعبير عن عواطفه، هناك الكثير من الرجال- مثلًا- يجدون في التعبير عن عواطفهم مساسًا بهيبتهم وقد يكون أحدهم!

- نعم. فكرت في هذا، لكنه على أية حال لم يكن كذلك حين عرفته!

- ذلك لا يتعارض مع ظني. فقد كان الأمر في نظره يستحق بعض

التنازل للحصول على ما يريد، ثم يعود كل شيء إلى موضعه.

قالت بلا مبالاة:

- ربما!

بادرتها بلهجة الواثق:

- بل هي الحقيقة على الأرجح. ولكن أين شقيقتك من كل هذا؟ أذكر أن لك أختًا كبرى، هل انتقلت من المدينة؟

خلت صفحة وجهها من أي تعبير- وهي تجيبني:

- لم أرها منذ سنين!

وتابعت..

- آخر مناسبة جمعتني بها كانت جافة جدًّا. زرتها لأهنئها بمولودها الجديد، فعاملتني بحذر وارتياب، وتعمدت إلقاء عبارات جارحة حيث لم أكن قد تزوجت حينها. شعرت وكأنها تحثني على المغادرة لكني حرصت على كتم غيظي حفاظًا على الشعرة الأخيرة بيننا، أو ربما على كبريائي أمام أطفالها الذين لم تحرص يومًا على صرفهم كلما تحدثنا في أمور خاصة أو حساسة، لدرجة أنهم أصبحوا يشاركون بإلقاء بعض التعليقات الساخرة والمهينة التي لا تبدي أمامها أية اعتراض أو توجيه.

أذكر أنها سألتني أمام ابنتها الكبرى حين عاتبتها بودٍّ عن عدم سؤالها

عني فقالت باستياء:

– ماذا تريدين مني، أن أنفق عليك؟!

حينها لم أجد مبررًا لسؤالها الذي دفعني دون شعور لاختلاس نظرة إلى ثيابي لعلها كانت رثة أو تحمل عيبًا يجعلني أبدو في نظرها كمتسولة تتحرج من الانتماء إليها أمام أبنائها. وفي تلك الأثناء طرفت بعينها إلى ابنها في إشارة ذات معنى كي يتراجع عن التقدم لإلقاء التحية ونظرت إليه يتعثر متراجعًا بسرعة، بينما تبادلت مع ابنتها ضحكة ساخرة لم تهتم حتى بإخفائها عني.

أصابني موقفها في ذلك اليوم بالحيرة، لم أرها من قبل بتلك الفجاجة، كانت دائمًا متحفظة حتى في بغضها، لكن في تلك المرة بالذات لم تحاول بذل أدنى جهد لإخفاء كراهيتها وامتعاضها. وكأنها قررت أن تنهي كل شيء.

لقد قررت منذ ذلك اليوم نسيانها، وعلى أية حال فهي لم تذكرني يومًا، فمنذ زواجها اختارت طي صفحتنا من حياتها وقطعت تواصلها معنا إلا في المناسبات. أحببتها كثيرًا، وكان ذلك أمرًا بديهيًّا بين شقيقتين ولم ألتفت يومًا إلى موقفها الأناني عند كل حادثة، كثيرًا ما تنازلت لها عن ثيابي الجديدة أو مقتنياتي العزيزة لأرى على وجهها السعادة، وأنسيها مرارة

التخلي الذي كنا نعانيه من أخواي فلم تكن سوى صورة مطابقة لهما. ولكن بطريقتها الخاصة.

أحيانًا غياب البديل عن حياتك يجبرك على احتمال أسوأ ما لدى الحاضر، تلك الكارثة التي لا تنفصل عن حياتي باستمرار.

لقد حرصت دائمًا أن أحافظ عليها لكنها أصرت على أن تقطع ما تبقى بيننا من أواصر، خاصة بعدما تقدم بي العمر وتضاءلت فرصي للزواج. وقد نما إلى علمي أن زوجها يتحدث في المجالس على لسانها قائلًا إنها لم تعد تحرص على زيارتنا كي تتفادى حسدي لها ولأطفالها بعدما فاتني قطار الزواج وأصبحتُ مليئة بالغلِ!

- ألم يكن زوجها من يحتال عليها لتقنعك بالموافقة للزواج من شقيقه؟!

- قد كان.. ثم واتته الفرصة للانتقام من رفضي، فهل يضيعها؟!

وملأني الفضول لمعرفة ذلك السبب الذي دعاها لاختيار تلك الكلمة المريبة (الانتقام)، فأي شيء يدعو رجلًا للانتقام من شقيقة زوجته التي يفترض أن تكون بمثابة أخته!. ولم أتردد في سؤالها عن الأمر فأجابت وهي تحاول اختصار التفاصيل التي بدت وكأنها لا تود استعادتها.

- في حقيقة الأمر لم يكن لأخيه علاقة بالأمر على الإطلاق، بل إنه لم يكن متحمسًا لذلك الزواج دونًا عن بقية أسرته، كانت الأمور تجري أمامي

كقطع مبعثرة للوحة كبيرة، لم أتمكن من فهم شيء حتى مضى الوقت وجرت أمامي الأحداث متوالية كقصة محبوكة. فاتضحت الصورة!

في بداية زواجه من شقيقتي ظل يردد عليها لمدة طويلة شكوكه في كون أسرتي قد نجحت في خداعه عند حضوره لرؤيتها قبل العقد.

قالت لي في أكثر من مناسبة أنه دائمًا ما يردد أنني أنا التي قمت بالدخول عليه في ذلك اليوم ليراني بدلًا منها حتى يمضي في إجراءات الزواج، وفيما بعد قمنا بالتبادل لتكون أختي الكبرى هي العروس بعدما عقد القران!

قلت في دهشة:

- كيف استطاع أن يقول لها ذلك؟!

فأجابت:

- لقد أخذتني الدهشة آنذاك مثلك تمامًا، وبخاصة أن شقيقتي أجمل مني بكثير، كما أنها كانت لا تزال مراهقة، بينما كنت أقرب للطفولة، لكن الرجل كان كما يبدو يحاول إيصال تلك الرسالة إلي عن طريق شقيقتي الساذجة التي لا تعرف عن الحياة سوى الكتب الدراسية والمدرسة التي تخرجت منها حديثًا.

قلت بامتعاض:

- أي شيء يعني هذا؟

لم تتمكن من إخفاء الانزعاج الذي أزاغ عينيها وأضعف أنفاسها،

فقالت وكأنما تجد صعوبة في التقاط الأنفاس:

– في كل مناسبة كان يكرر حديثًا كهذا عليها؛ لعلمه بأنها لن تتردد في إلقائه في أذني، إنها تثق به ثقة عمياء للأسف، وتلك مصيبتها التي حولتها إلى مجرد رقيق لذلك الرجل الخبيث. وأنا لا ألومها، فهي لم تتعلم من خبث الحياة شيئًا، وترى مثلي أنها تمنحه كزوج كل ما تستطيعه وأكثر، فما الذي يدعوه إلى خديعتها.

وتوقفت قليلًا؛ لتشرب بعض الماء، ثم واصلت حديثها:

– كان كثيرًا ما يحاول مصادفتي متذرعًا بالسهو، فيطل من حجرة الضيوف عند مروري أو يدعي الرغبة في المغادرة حين يظن أنني على مقربة من المكان، وحين رزقا بمولودهما الأول وكعادة الفتيات في تلك الظروف أن يقضين تلك الفترة في بيت الوالدين، لم يفعل ككل الأزواج ويقضي الوقت مع أسرته أو في بيته ريثما تقضي فترة النفاس لدينا، بل تجرأ بالمبيت مع شقيقتي التي لم يعد هناك من حجرة يمكنها المكوث فيها غير حجرتي، وكانت تلك فرصة عظيمة لمصادفتي كثيرًا، سهوًا كما يدعي.

قاطعتها:

– وهل حاول الإيحاء لك بشيء مثلًا؟

فقالت:

– لم أكن أفهم، لم أكن ألقي بالًا لكل ما يحدث، كان رجلًا مَحْرمًا لا يخطر لي مجرد التفكير فيه أو الاهتمام بسلوكياته، كما أنه كان يحاول أن يظهر مؤدبًا ولطيفًا أمام الأسرة.

حسنًا. قلت ذلك لتتابع حديثها، فواصلت:

– حتى في تلك الظروف لم يتوقف عن ترديد حديثه السخيف عن الفارق بيني وبين شقيقتي، بل أصبح يقول لها إنني أجمل، وهو يعلم مقدار غرورها الذي سيحملها على الغيظ والوصول إلى اللحظة التي يريدها، وقد كانت..

وقلت في ارتياب:

– أي لحظة؟!

قالت باشمئزاز:

– صادف ذلك اليوم عطلة نهاية الأسبوع التي أحاول أن أعوض فيها بعض ساعات النوم من نهاره، وكانا مستيقظين في الحجرة المجاورة؛ حيث نقلت فراشي إلى حجرة الضيوف ولم أكن أغلق الباب بالمفتاح– تعلمين أنه ليس من المعتاد إغلاق أبواب الحجرات بالمفتاح في البيوت عند النوم لغير الوالدين– كنت مستغرقة في نومي، ويبدو أنه أعاد عليها تلك العبارات المثيرة للغيرة حتى تحولت إلى تحدٍّ، وبالرغم من سرقتها لبعض صوري خلسة مني لتؤكد له أنها الأجمل، إلا أن ذلك لم يشبع رغبته القذرة حتى طلب منها أن

تسمح له بإلقاء نظرة مباشرة علي في أثناء نومي. ثم أغلقت الباب وهي تكتم ضحكاتها وقد ظنت أنها كسبت التحدي واستطاعت إقناعه.

- أي جنون هذا؟!

قالت بسخرية:

- لم تكن تهتم بشيء سوى ذاتها، وقد فهمها جيدًا واستطاع استعمال تلك الأنانية في خدمة مصالحه الشخصية. إلا أن الله كان دائمًا ما يحيطني بلطفه، ويحميني.

- حسنًا. وكيف عرفت بالأمر، هل تنبهت لصوت الباب أم ماذا؟!

- كلا. على الإطلاق، كانت ابنة أخينا الصغيرة قد اختارت المبيت معي في ذلك اليوم؛ حيث كانت فرحة بقدوم مولود جديد في العائلة، وفي الصباح شاهدت ما حدث أثناء خروجها من الحمام المطل على الحجرة، وأخبرتني بالأمر عرضًا وهي لا تدري عن أي كارثة تتحدث.

قلت:

- أجد صعوبة في تقبل مبررات واهية كتلك التي تحمل شقيقتك على ما فعلت.

وهزت رأسها مؤكدة:

- بل الغيرة يمكن أن تفعل المزيد بمثلها.

وأعدتُ كلمتها الأخيرة متسائلة:

- بمثلها؟!

فأجابت:

- لا أحب الحديث عنها كثيرًا، لكني أقرب الناس إليها ولدَيَّ صورة واضحة عن دوافعها، لقد عشنا حياة معتلة، مليئة بالخوف والقهر والتهديد، ولذلك فربما لديها حاجة عميقة للشعور بالأمان الذي تجده في كلمات الإطراء وعبارات الإعجاب.

- حسنًا. ما زلت لم أصل إلى تلك الحلقة المفقودة في موقف زوجها، كيف استطاع الانتقام منك، ولم؟.

- عزيزتي، يبدو أن هناك نوع من الرجال لديه تصورٌ مشوَّهٌ عن الفتيات عمومًا، فيظن أن أية فتاة مهما كانت صلتها به أو قرابتها له لا يمكن أن ترفض إغواءه.. لكنني فعلت!

وتابعت..

- في الحقيقة، لم أكن وقتها لأتخيل أن هناك من يمكنه التطلع إلى فتاة محرمة، بل بهذا التحريم الذي بين رجل وشقيقة زوجته، لكن الأمر كما يبدو لا يضيره، كما لم يكن يعنيني، وهكذا تحولت محاولاته الفاشلة إلى رغبة متطورة في الانتقام، بدءًا من إبعاد شقيقتي عني، وتشكيكها في نواياي، مرورًا بعروض زواج فاشلة تضمن له الوصول إلي، وفي كل مرة

كنت أرفض بشدة، وأقضي الليالي متضرعة إلى الله بألا يصبح الأمر في موضع جدية فأجد نفسي مرغمة من قبل الأسرة على القبول.

– وهل كنت ترفضين علمًا بنواياه؟!

– في الحقيقة.. كلا. لم أكن أرغب في حياة كالتي تحياها شقيقتي، فأنا لم استمرئها يومًا.

– وكيف أصبح موقفه منك الآن؟

قالت بسخرية:

– لا شيء. في إحدى المرات وعند اجتماع العائلة كنت أقف على مقربة من الباب لأحدث أختي في أمر ما، وتناهى إلى سمعي صوت أحد إخوتي وهو يطلب منه البحث لي عن زوج، فلم يكن منه سوى أن رفع صوته متسائلًا: وأين كنتم من قبل – في إشارة لتقدم عمري وضياع فرصي – ثم أردف قائلًا: بالأمس كان زفاف زميلي المليونير في العمل، لقد تزوج متأخرًا وهو في الخامسة والثلاثين فتاة عادية جدًّا ومن أسرة بسيطة، فضحكت بسخرية ونظرت إلى شقيقتي نظرة ذات مغزى، فتلعثمت وأصابها الارتباك.

أذكر في إحدى المرات أنني أخبرتها عن إحدى صديقات المدرسة حين كنت لا أزال طالبة في الثانوية عندما عرضت علي الزواج من أحد أقاربها، أخبرتني الفتاة أن الشاب وسيم ولطيف ويعمل في التجارة مع والده، قالت لي إنني سأكون سعيدة

إن تزوجته، لم أكن حينها أجرؤ على إخبار والدتي بالأمر حتى لا تظن أن أمور الزواج تهمني؛ حيث كان أخي آنذاك يردد عليها مثل هذه الأفكار ليقنعها أن من الأصلح لي ترك المدرسة، فالفتيات يفسدن أخلاق بعضهن بالحديث عن الشباب والعلاقات العاطفية، وهكذا لم أجد سوى شقيقتي لتفتيني وتساعدني في القرار، وحالما أسررت لها بالأمر بادرتني محذرة ألا أذكره لأحد وبررت لي أنني لا أزال صغيرة، وقد آمنت برأيها ونسيت الأمر، ثم مر وقت ووجدتها تذكر لنا في معرض حديثها في إحدى زياراتها الشحيحة أن جارتها التي تنتمي إلى عائلة معروفة سألتها إن كان لديها أخت ملائمة للزواج من أخيها الشاب، فادَّعت بأنها وحيدة، بل كانت تخفيني في حجرة داخلية وتطلب مني عدم الخروج إن صادفت زيارتنا لها وجود المرأة. لقد أخذني الفضول وسألتها عن سبب إنكارها لوجودي فقالت إنها لن تسمح بأن أحصل على زوج أفضل من زوجها، وإلا ستموت،

لا أدري ما الذي حملني على تمرير تلك الكلمات دونما تفكر، هل ظننتها مزحة وأنا لا أعرفها تمزح، أم كنت مؤمنة آنذاك بأنني لا شيء، وأني أستحق الإنكار، أعلم أني لم أكن أحب ذاتي، ولم أكن أحب جمالي، وهذا ما جعلني لسنين طويلة أقبل بحماقة دور المحرومة من الحب والزواج، وكأن الزواج والحب للجميلات فقط.

لقد عانيت كثيرًا من ضعف الإدراك، وسوء تفهم الحياة، ذلك لأني لم أجد أحدًا يعلمني مبادئها، لقد حرمت حتى من الدروس القاسية التي كانت

كفيلة بتعليمي نيابة عن جميع المنصرفين عني، الذين اكتفوا بدور المتفرج والساخر أحيانًا.

عقد الصمت لساني.. واكتفيت بتبادل نظرات حائرة معها، فربما لم أصادف في حياتي أوجاعًا متراكمة في ذات كما وجدتها لدى هذه الجالسة أمامي، لقد أكبرتها حقًّا، ودار في خلدي سؤال عما قد أكون عليه لو أنني اضطررت لتكبد تلك المآسي التي تحتملها تلك الفتاة بكل هذا الصمود. وانحدرت من عيني دمعة ساخنة جرت سيلًا من خلفها رغمًا عني حين تذكرت موقف شقيقتي عندما هرعت إليها لأهنئها بخطبة ابنتها الكبرى فتغيرت ملامحها، وبدا عليها انزعاج لم تفلح في إخفائه رغم ابتسامة صفراء رسمتها بصعوبة على شفتيها سرعان ما تلاشت وهي تسألني بغيظ مكبوت عن الذي أخبرني بالأمر وكأنما تضمر له وعيدًا لما اقترف، ثم ما إن قَدِمت ابنتها لتقبلني حتى صرفتها فورًا وهي تبرر أن هناك شيئًا عليها القيام به سريعًا؛ لتعجل والدها في طلبه. عندها أدركت أن فرحتي غير مرغوب بها، وتماسكت لا أدري كيف تمكنت من ذلك حتى وصلت إلى السيارة حيث رحت في بكاء صامت طوال الطريق إلى المنزل.

ذلك اليوم، فكرت أنني أتعس أهل الأرض قاطبة، واستعظمت موقف شقيقتي مني، وأخذت أتساءل.. كيف سيكون شعورها لو كانت مكاني، لماذا تزيد ألمي بحرماني من مشاركتها فرحة زواج ابنتها، لماذا ترفضني

بهذا البرود، وكيف يخيل إليها ألا أكون سعيدة بفرحة ابنتها التي شاركتها في تربيتها أيامًا عديدة وبكل محبة وترحيب.

التاسعة وسبع وأربعون دقيقة..

استفقت من رحلة قصيرة في متاهات الذكرى وتظاهرت بمتابعة إنصاتي لحديث «منال»، وأنا أدرك مقدار الألم المعتمل في نفسها.

أردت الخروج من ورطة سؤال عابر قد يكشف انقطاع تركيزي معها ويعيدنا إلى قضية زوجها؛ فقلت لها:

– ألم تحاولي إقامة علاقة جيدة مع إحدى بنات زوجك أو شقيقاته، فربما ساعدك ذلك في تقريب وجهات النظر بينكما أو تخفيف حدة توترها؛ حيث أن وجودك كحالة استثنائية في حياته قد يحمل له بعض الاضطراب فيقوده إلى إظهار التململ ومحاولة التملص من واجباته.

أجابت– وهي تلف خصلة من شعرها حول سبابتها في شرود:

– الأمر ليس اختلاف وجهة نظر يا «أمل». لقد كان عبارة عن صفقة خاسرة وأنا لم أفهم مبكرًا، ثم أطلقت ضحكة ساخرة– وهي تتابع:

– وحتى إن فهمت، فلن يغير ذلك في الأمر شيئًا!

قلت لها:

– لا أفهم. هل تعنين أن الزواج كان عبارة عن صفقة؟!.. كيف؟!

أجابت ببؤس:

- لا حاجة لتحليل عميق.. رجل لديه زوجة وأبناء وأحفاد، يقرر الزواج من فتاة يتيمة،وحيدة، فاتها قطار الزواج.. ألا يبدو الأمر واضحًا؟!

سرحت ببصري وقد أدركت مقصدها، فقد كانت وسيلة مخفضة الكلفة للترفيه عن رجل عجت حياته بالروتين، وهكذا يرى كثير من الرجال فتاة في تلك الظروف، إنها المعنية بسداد الثمن دائمًا، فإذا سارعت بالبحث عن رجل يعفيها من الوصول إلى محطة العنوسة وفشلت في اختياره فهي حمقاء، وإذا انتظرت وصول من يلائم عقلها وظروفها فهي مغرورة، وإذا قبلت بأول رجل يدق بابها فهي متسرعة وسيئة التقدير. وفي كل حالات الفشل تظل المسئولة. فهي لم تكن ذات فكر رشيد، أو لم تقدر النصيحة، أو لم تحذر بما فيه الكفاية. في كل أحوالها متهمة إلا أن تكون محتالة تجيد تمثيل الأدوار، عندئذ يمكنها أن تأخذ الجميع في صفها، وتصبح في نظرهم ناجحة وذكية؛ لأنها تحقق ذلك على حساب حماقتهم واستمتاعهم بالاستغفال.

أخذني التفكير مرة أخرى، ولكن في هذه المرة نبهتني «منال» بسؤال عما إذا كنت معها أم رحلت بأفكاري عنها، وابتسمت لأخفي ارتباكي- وأنا أقول:

- هل تعلمين.. لم أكن أدري أن هناك شخصًا تحمل تفاصيل حياته كثيرًا مما أعيش. لقد شعرت طويلًا أن تفاصيل حياتي فريدة في سوئها، بعيدة عن المألوف، وكان هذا أكثر ما يؤلمني- أعني أن تظني أنك المخولة

الوحيدة باحتمال أسوأ الأقدار- لم أكن أتخيل أن صديقتي القديمة تشاطرني كل هذا ونحن في مدينة واحدة وطالما قضينا الساعات معًا!

قالت- وهي تبتسم:

- ما يثير دهشتي في هذه الحياة، التزامنا بالتكتم على أوجاعنا، لا أدري لم كان علينا دائمًا أن نفعل هذا، أفهم أننا نفعله بدافع استشعار الكرامة، أو خوفًا من تعكير صفو المقربين، أو هربًا من الشماتة، دوافع كثيرة حمقاء، بالرغم من أن بوسعنا أن نكون أكثر سعادة بتقاربنا أكثر وتخلصنا من كثير من تلك القيود المسيطرة على عقولنا. ألا يكفي الغضب والغيظ والكراهية والحزن والألم!، فلم السخرية ولم الشماتة ولم التشفي ولم التعيير بالوجع؟!. تخيلي فقط لو لم تكن هذه المعاني، لو لم نعرفها!.

- هذا منطق لا يتسق مع العامة: لقد توارثنا الكثير من الأفكار العقيمة ولم نحاول تغييرها أو حتى وزنها بميزان المنطق، وما دمنا نحلق في هذا المسار المختلف دعيني أخبرك عن بعض تساؤلاتي التي سيعتبرها الآخرون نوعًا من الجنون الصرف.

ضحكت برقة- وهي تقول:

- وليس أفضل مني للاستماع إليها.

قلت:

– لابد أنك ستتفقين معي بهذا الخصوص، فهل فكرت يومًا عن السبب المنطقي خلف ارتداء أزياء محددة أو ذات طابع ما في وقت أو مكان ما، ما الذي يجعل بعض الألوان لا تلائم بعضها البعض وتعبر عن الفجاجة وسوء الذوق في فترة زمنية ما، ثم تصبح تعبيرًا عن الرقي والتميز والجمال في فترة أخرى، هل فكرت في تلك القيود التي تجعل من حياتنا ضيقة ومتطابقة وخالية من الإبداع والتميز. أعني أن هناك من يحدد لنا بصورة ما، ما الذي علينا ارتداؤه وما الذي علينا فعله وحتى تناوله، بينما ننفذ أوامره بكل اقتناع ودونما تردد ظنًّا بأننا نمارس التحضر.

قالت:

– فيما يتعلق بهذا الأمر أراك على صواب. في جوانب معينة هناك شيء من السخرية والتلاعب بأذواق الناس لتحقيق مصالح مادية ليس إلا، ولكن في جانب آخر قد يكون الأمر نزوعًا إلى التنظيم ليس أكثر.

قلت بحماس:

– أفهم ما تودين قوله ولكن هل فكرت في أولئك الفقراء الذين يمثلون النسبة الأكبر من العالم في كل مكان، تلك الأفكار تزيدهم بؤسًا وإحساسًا بالحرمان، حين لا يكون بمقدور الفتاة أو الصبي ارتداء زي المدرسة مثلًا، ما المشكلة ألا يكون هناك زي محدد لثياب المدرسة؟

واستطردت:

– هل تعلمين أن التلميذات في الماضي لم يكن عليهن ارتداء بذلة خاصة بالمدرسة، كان يكفي أن ترتدي زيًّا محتشمًا وحسب.

قالت– وهي تبتسم:

– يبدو أن تلك القصة القديمة لم تطويها الأعوام.

وضحكنا معًا، ثم قلت:

– لا أدري حقًّا إن كانت سببًا لهذه الأفكار، ولكن ألا ترين كم بلغ بتلك المعلمة السخفُ لترغمني على توقيع تعهد لمجرد أن بعض الخصلات الصغيرة تدلت من غرتي. واختفت بعض الكسرات من زيي المدرسي.

قالت «منال» بنبرة جدية:

– بالفعل كانت سخيفة جدًّا، لكن الأمر لم يكن أكثر من محاولة لكسر كبريائك، فهناك الكثيرات يقرأن تعابير وجهك بطريقة خاطئة على ما يبدو.

– أحقًّا أبدو مستفزة..؟!

وضحكت «منال»– وهي تقول:

– بعض الشيء يا صديقتي!

قلت:

– على أية حال.. تلك ليست حقيقتي.

obeikan.com

وعلقت «منال»:

- بالطبع. ولكن البعض لا يمكنه فهم هذا إلا بعد الاقتراب عن كثب.

وبعد هنيهات من الصمت قلت لها:

- ألا تشعرين أنك الآن أفضل خاصة إذا علمت أن هناك من تعيش ذات المخاوف، وذات الألم، وذات الخيبات، وإن كان الاختلاف بيننا مجرد رتوش تجعل لكل منا حياة ببصمة خاصة.

حدقت بي في إحباط- وقالت:

- حقيقة. لم أتصور أنك تحملين كل هذه المرارة.

ضحكت بأسى- وأنا أقول:

- لقد أدركنا ولا بد أن الحياة تتطلب منا مهارة ارتداء الأقنعة. هناك من يملك العديد منها، بينما نكتفي نحن بقناع واحد يخفي ملامح الحزن التي نحتتها السنون على وجوهنا، إنه القناع الذي يجعلنا غير منبوذين في هذا العالم المليء بالتزييف والخداع، ولو كشفنا عن وجوهنا الحقيقية لما احتملها أولئك الذين طالما حرصوا على نحت بصماتهم الملوثة عليها.

عادت تكرر تساؤلاتها بعد صمت:

- كثيرًا ما سألت نفسي عن حاجة الناس لإظهار مالا يضمرون أو العكس، لماذا يجب أن نحتمل الأسى بمفردنا بل ونتظاهر بالسعادة مثلًا، ما ذلك الشيء الذي يسمى كبرياء ويحملنا على هذا التمثيل المستمر،

ويحمّلنا المزيد من الضغوطات والأحزان والمتاعب، لماذا علي أن أخفي أسفي من أمر ما ولا أبوح به، لماذا علي أن ألتزم الصمت؟!!.

قلت لها؛ محاولة إيجاد أجوبة لتلك التساؤلات:

– نعم إنه الكبرياء. فنظرات الإشفاق أشد وجعًا من تلك الآلام التي نحتفظ بها لذاكرتنا فقط، وربما أن العالم لا يتسع لصوت أوجاعنا جميعًا فكان من اللازم إيجاد معنى يقنعنا بما نفعل ليسجنها بداخلنا.

وصمتُّ قليلًا، ثم تابعت بملل:

– لقد توصلت إلى حل نهائي لكثير من المتاعب، أن أترك عادتي العقيمة في تحليل الأمور، فذلك يعطيها مزيدًا من السيطرة على عقلي ووقتي، فأعيش بداخلها مزيدًا من العمر، أعني أن عليك ربما الاقتداء بي في هذا الشأن والتوقف عن التفكير. حاولي فقط أن تتعايشي مع اللحظة بتجرد تام عما مضى، وربما تجدين الفرق.

قالت– وهي تثبت ذقنها فوق قبضتيها المتشابكتين في فتور:

– ربما لم ترد علي فكرة كهذه، ولكن.. هل من السهولة تنفيذها؟ أعني.. حين يكون أمامك الوقت ممتدًّا بلا نهاية فلا تملكين أكثر من صرفه في استرجاع الماضي وإعادة تحليله وتشريحه. غالبًا ليس لهدف سوى قطع الوقت.

فكرت قليلًا، ثم قلت:

– حسنًا. لماذا لا تحاولي تبديده بطريقة أخرى كيلا تجدي فيه متسعًا لهذا العذاب.

أغمضت عينيها بتعب، ثم نظرت إلي وقالت:

– لا أريد إحباطك، فأنت تجتهدين طوال الحوار للوصول إلى فائدة، أعلم أنك ستقترحين علي العودة إلى الدراسة مثلًا، أو الانخراط في دورة تدريبية، أو حتى المشاركة التطوعية في المجالات الخيرية، وقد خطر لي كل هذا ولكني وجدت أن محاولة الفرار الإيجابية هذه تأخذني إلى طريق أكثر توغلًا في المعاناة.

وثبتت عينيها في عيني، وتابعت:

– لقد كانت صدمة إضافية لم أتصورها أبدًا، فقد كان يبدو لطيفًا، حسن النية إلى حد السذاجة أحيانًا، ولكن دخولي إلى عالمه أيقظني على كثير من صفاته الكريهة. إنه مريض بالشك ومليء بالوساوس رغم أني لم أعد في عمر يسمح لي بالتهور وارتكاب التصرفات الصبيانية فضلًا عن طبيعتي التي يفهمها، إلا أنه يعاملني كفتاة جامحة. إنه يكرر معي ذات المعاملة التي كنت أتلقاها في منزل الأسرة.

زاغ بصري– وأنا أحاول البحث عن مخرج لهذا البؤس، فقلت لها:

– لتحاولي مرارًا حتى يستجيب، فالنتائج ستكون مفيدة لكليكما.

تنفست الصعداء ثم قالت:

– أمل، لقد كررت طلبي عدة مرات، بل وصلت إلى أكثر من ذلك، لقد

عرضت عليه العودة للعمل في مكتبه، فعلى الأقل سيكون مطمئنًا لكوني معه، وفي نفس الوقت يمكنني قضاء وقتي في شيء آخر عما أفعله كل يوم.

علقت متسائلة:

- حسنًا. وماذا كان رده؟!

ضحكت ساخرة، وقالت:

- بالطبع لم يستجب، بل رفض رفضًا قاطعًا

زممت شفتي امتعاضًا من موقفه، وقلت لها:

- ألا ترين أن موقفه غير منطقي.

قالت- وهي تبتسم بأسف:

- نعم. غير منطقي تمامًا. وقد عرفت السبب فيما بعد مصادفة!

وسألتها عن ذلك السبب؛ فأجابت:

- كانت لي زميلة تعمل في مكتبه أيضًا، وفوجئت بها تقدم لي التهنئة عقب زواجي بمدة قصيرة؛ حيث كان الأمر سرًّا كما تعلمين، فتعجبت من معرفتها به، وبعد حوار قصير وحذِرٍ، أخبرتني أن البعض هناك يعلم بالأمر، وقد اعتادوا ذلك، وسألتها عن مغزى تلك العبارة فقالت إنني لم أكن الزوجة الثانية فهو مغرم بالتغيير. فقد سبق له الزواج عدة مرات بنفس الطريقة، وغالبًا ما يختار زوجاته من الموظفات.

كانت كلماتها كالصاعقة، خصوصًا وأنه لا تبدو عليه علامات تثير

الشك في شأن كهذا، إلا أن عبارة ذكرها لي قبل الزواج ومضت في رأسي فجأة ولا أدري ما الذي أصابني حينها لتمر بي مرور الكرام.

وقلت- بحماس:

- ماذا كانت؟!

قالت:

- قال لي: سوف نجرب الزواج لعام أو عامين ثم نرى ما الذي يمكننا فعله.

أذكر أنني حينها فسرتها على نحو مختلف؛ حيث ظننته يشير إلى شكل الزواج بأن يتحول من سري إلى معلن حسبما تستقر إليه الأمور، لم يدر بخلدي أنه يتحدث بهذه الفجاجة وبكل بساطة عن أمر كهذا، وكأنما استفقت من حلم ودارت بي الدنيا، وقررت أن أخفي علمي بذلك كيلا أعجل بالانفصال أو أعرض الفتاة لمشكلة قد تنهي عملها.

قلت بدهشة لم أفلح في كتمانها:

- يا لهذا الرجل! لولا الأعاجيب التي مررت بها وجعلت كل من أفصح له بشيء منها يتهمني بالوهم والمبالغة لظننت بحديثك ذلك. ولكن.. لم تذكري لي كيف علمت زوجته بأمر زواجه منك.

- قد تكون زيجاته السابقة منحتها القدرة على كشف كل علاقة جديدة يعيشها، لكني لا أعلم حقًّا كيف عرفت. على أية حال لا يمكن إخفاء

قصص الزواج لوقت طويل.

أمسكت كفها بإشفاق- وأنا أقول:

- يبدو أننا لم نأخذ من الخبرة ما يكفي لتوقع أمور كهذه تعد صدمات بالنسبة لنا على ما وصلنا إليه من العمر، لكن العبرة ليست بالسنين. على كل حال يا عزيزتي.. لا تبتئسي فالغد في يد الله. أدرك الآن أنك تعيشين الخوف وتظنين أنه في لحظة وأخرى قد يتهور ويتركك، لكنني أثق أنه لن يفعل، فأنت لا تشبهين البقية ولا شك.

ابتسمت في غير مبالاة، وقالت لي:

- لا شك بأنني فريدة بالنسبة لأقرب صديقاتي.

وأردفت:

- إنه لم يفعل حتى الآن.. لكن شعورًا مبهمًا ينتابني بشأنه أو بشأني. لا أعلم!

لقد سئمت يا «أمل». لم أعد أبالي بشيء؛ فالحياة لمن مثلي لم تعد تتسع للآمال والأمنيات. ربما من حسن الحظ أن أطفالي لم يخلقوا إناثًا، على الأقل لن يكون هناك احتمال لتكرار المأساة معهم مجددًا. إنني أفتقد ذاتي. أفتقد طعم الأشياء. ليس هناك ما يثير اهتمامي. تساوت في نظري المتناقضات، وأشعر في لحظات أني تافهة.

صدقيني لم يعد يصدمني شيء، حتى إن حدث الطلاق أو علمت بوجود زوجات أخريات، فأنا بالنسبة إليه لا شيء. وكذلك أصبح بالنسبة لي أيضًا.

لقد كنت حتى عامين مضت لا أزال أستطيع أن أحلم، وأرى صورًا جميلة في الأفق، ثم أردت أن أقنع نفسي بأنه أحد الأحلام التي رسمت كي أستطيع تقبل واقعي الجديد، ثم جعلت أطفالي الواقع الأفضل هربًا من إحباطاتي معه، وفي النهاية لم أجدني، فأنا التي كنت جديرة بالبحث عني!

قلت لها- محاولة تهدئتها:

- لا تثقلي على نفسك بهذا التفكير، ربما ترين في نفسك كل هذا الإحباط، لكنني أراك بصورة أخرى جميلة، فأنت مناضلة فريدة، ليس هناك من يمكنها الصمود بهذه القوة مثلك رغم كل التفاصيل المخيبة للآمال. لا تكثري اللوم على نفسك فأنت مؤمنة، ولو كان في إيمانك ضعف لتعددت أمامك الخيارات، لكنك في كل الأحوال تؤمنين أن الحياة امتحان كبير لا يفوز به إلا الأقوياء، أما بالنسبة لك كواحدة من سكان هذا العالم، فقد كنت ابنة طيبة، وأختًا متسامحة، والآن أنت زوجة صابرة وأم مضحية، وبالإضافة لكل ذلك فأنت صديقة رائعة، فهل هناك أعظم من أن تجتمع كل هذه الصفات في شخص واحد، إنك فريدة يا صديقتي.

ارتسمت على ملامحها علامات سعادة بريئة وبدت أمامي كطفلة يتبدل حزنها إلى رضًا بعد قليل من عبارات المديح والتشجيع. أمسكت كفي بإحكام- وهي تقول بامتنان:

- لا يمكنك أن تتصوري مدى الراحة التي ملأت نفسي بعد هذا الحديث، أرجوك سامحيني عن الوقت الكئيب الذي اضطررتك لقضائه معي فقد كنت بحاجة للتخلص من ضيقي المتراكم ومناقشة أفكاري مع من يتفهمها.

بادرتها بابتسامة- وأنا أقول:

- لا بأس يا «منال». لست بحاجة إلى الاعتذار لأني قد أكون يومًا في مكانك وأحتاج إلى إصغائك، كما أنني على كل حال كنت أشاركك التفكير بصوت مسموع في قضايا تمسنا معًا، سوف أمسك دفة الحديث في المرة القادمة. فقط حضري المناديل، (قلتها مازحة).

ضحكنا قليلًا، ثم احتضنتني وقالت لى بنبرة صادمة:

- أخشى أنني لن أستطيع.. فاعذريني!

شعرت بانقباض من عبارتها وتفرست في ملامحها بحثًا عن تفسير لها فلم أفلح، فشددت على يدها، ومسحت بكفي الأخرى على شعرها- وأنا أقول:

- لا بد أن أراك ثانية. فأنا بحاجة إليك أيضًا.

obeikan.com

هزت رأسها موافقة وكأنها تكتم حديثًا يبدو أنها تعجز عن قوله، ثم قالت لي إنها ستسافر إليه حيث ينتظرها في إحدى العواصم بعدما انتهى من مهمة عمل وتبقى له بعض الوقت، لكنها ستحاول إقناعه كي يتركها تقيم هناك ولو لبعض الوقت، فتمنيت لها وقتًا طيبًا وفرصة جيدة للاستمتاع، فابتسمت مبدية أملها بذلك، وتبادلنا أرقام الهاتف. ثم استأذنتني وتناولت حقيبتها، وقبل أن تغادر احتضنتني للحظات غمرتني خلالها بالكثير من الكلمات الصامتة.

وتابعتها وهي تمضي بخطواتها بعيدًا، بينما التفتت نحوي ولوحت بيدها مودعة قبل أن تواصل السير نحو بوابة الخروج.

كان لقاء متخمًا بالألم، لا أدري إن كنا نستحق هذا القدر من العناء، أم أن بوسعنا احتمال المزيد والمزيد بيد أننا نستصغر قدراتنا الكامنة، فنعلن الاكتفاء والاستسلام خوفًا من أن يلحقنا ضرر ما.

العاشرة والنصف مساء..

لقد مضت «منال» وقد استطاعت أخيرًا أن تجد من ينصت إلى بعض أنينها المكنون، وأشعر ببعض الزهو؛ لأنني استطعت أن أحملها على الحديث وأرفه عنها ولو بالقليل، لكنني تساءلت في داخلي عما إذا كان باستطاعتي أن أحدثها يومًا عن متاعبي وهمومي التي لم أجد من أبوح له

بها، وأنا أدرك أنها لن تواتيني جرأة لاستعراض تفاصيل حياتي إلى مخلوق، ربما لارتباطها بآخرين، وأنا أحترم خصوصية غيري.

تذكرت «هند»، وتناولت هاتفي لأعاود الاتصال بها، كان هاتفها لا يزال مغلقًا، وانتظرت نصف ساعة حتى وصل السائق. وعدت إلى المنزل وقد قطعت طريق العودة في التفكير بكل شيء.

إنها الحادية عشر وسبع دقائق..

ها أنذا في حجرتي مجددًا، أشعر بإرهاق عارم، تناولت لباسًا قطنيًّا مريحًا، ودخلت الحمام وأخذت (دشًّا) دافئًا تسلل على إثره الارتخاء إلى جسدي، لم أستطع التحامل على نفسي أكثر واستلقيت على فراشي وذهبت في نوم عميق.

إنها الثامنة صباحًا..

الخدر يعتري جسدي لكني أشعر بالاكتفاء من النوم، نهضت من الفراش ووقفت قليلًا أمام النافذة أراقب عصفورًا صغيرًا يبدو أنه قرر بناء عشه في زاويتها، وشعرت بحرارة الشمس تلفح وجهي وأنا أجمع شعري وأثبته على قمة رأسي.

سرت نحو الحمام وتوضأت ثم صليت ركعتي الصبح وأنا أشعر بالخزي لتأخري في أدائها، وما إن انتهيت حتى ذهبت إلى حقيبتي وبحثت في داخلها عن هاتفي ورحت أطلب رقم «هند».

إنه يرن.. ما الخطب يا ترى؟!

وأخذت أحاول التفكير ببعض الاحتمالات التي سوف تخبرني بها بعد هذا السؤال، وإذا بصوتها المتعب يجيبني من الطرف الأخر..

– أمل.

– ما الخطب يا «هند». لقد شعرت بالقلق بعدما أغلقت هاتفك البارحة وأخذت طوال الوقت أعاود الاتصال دون جدوى. هل أنت بخير؟!

– لقد توفيت شقيقتي بالأمس، ولذلك لم أستطع الرد، أو فعل شيء. أنا آسفة.

– أوه.. أنا آسفة حقًّا. لقد استبد بي القلق فقط أرجو من الله أن يتغمدها بواسع رحمته.

– أنا متعبة جدًّا يا «أمل». لا أستطيع الحديث. أرجو المعذرة يا عزيزتي.

– لا بأس.. سأتركك الآن لترتاحي، وسوف أراك في المساء بإذن الله، اعتن بنفسك.

– إن شاء الله.

– في أمان الله.

– مع السلامة.

obeikan.com

تناولت مصحفي وأخذت أقرأ سورة يس لروح الميتة ثم دعوت لها بالرحمة، وقضيت الساعات التالية في تصفيف ثيابي وترتيب الحجرة التي كانت لا تزال مبعثرة منذ البارحة.

في الخامسة مساء.. كنت مستعدة للذهاب، ارتديت فستانًا بسيطًا باللون الرمادي محبوك من القطن والمطاط، كان مريحًا وواسعًا من الأسفل، ووجدت أنه ملائم لمثل هذه المناسبة حيث لا ينبغي البهرجة كما لا يصح ارتداء الأسود وكأنه شعيرة في مناسبات العزاء، صففت شعري وربطته خلف رأسي ولم أضع مساحيق تجميل، اكتفيت ببعض الكريم المرطب.

طوال الطريق قررت أن أنفصل عن كل ما حولي وأركز في الاستغفار والتسبيح والدعاء للمتوفاة، وكذلك لكل المتوفين الذين مروا في ذاكرتي، عدت أشعر ككل مناسبة مماثلة أن الحياة قصيرة جدًّا، ومخادعة جدًّا جدًّا، وظالمة أيضًا، فهي لا تتوقف عن فجيعتنا بسرقة أحبابنا وأقاربنا وأصدقائنا غفلة، وسالت دموعي وأنا أستعيد ذكرى وفاة والدي، وتلك القبلة الصغيرة التي طبعتها على جبينه وأنا لا أعلم أنها ستكون الأخيرة في هذه الحياة. في كل مناسبة عزاء لا بد أن أتذكرها، ولا بد أن أبكي حسرة على جهلي وعدم إدراكي لتلك الحقيقة آنذاك وإلا فلن أقبل بأقل من مرافقته حتى مهده الأخير.

الخامسة وسبع وعشرون دقيقة..

وصلت إلى منزل «هند». كانت أصوات النساء تعلو بهمهمة وبعض النشيج، ألقيت نظرة سريعة وأنا أتقدم نحو الردهة المؤدية لقاعة العزاء، هناك من تمسح دموعها، وهناك من تبكي بينما تحاول أخريات تهدئتها، هناك من يتبادلن أحاديث جانبية، بينما صوت المسجل الذي يقرأ القرآن لا يبدو أنه يحملهن على الصمت والإنصات.

أمام قوس القاعة كانت «هند» تقف لتلقي التعازي وقد لفت رأسها بوشاح أسود وهي ترتدي ثوبًا بنفس اللون، بدا لي وجهها متورمًا من شدة البكاء، يا للعجب، منذ ساعات فقط كانت تحدثني وهي تضحك وتمازحني، والآن أراها وكأنما مضت عليها أيام من المعاناة والتعب.

اقتربت منها، فتقدمت مني واحتضنتني ثم راحت في بكاء طويل، ها أنذا أشعر بالارتباك مجددًا، كيف لي أن أقنعها بالتوقف والتماسك وتناسي فكرة نوم شقيقتها تحت التراب، إنها فكرة مخيفة حقًّا يصعب تجاوزها ما لم يتلطف بها الله ويكتب عليها النسيان كي تتابع حياتها دون إغراق في التفكير بالعالم الآخر وحال الموتى.

شددت على يدها، ثم مسحت على ظهرها بلطف وأنا أطلب الرحمة والمغفرة لشقيقتها، ولا أدري كيف جرت على فمي بعض الكلمات المعزية والتي جعلتها تتماسك وتمسح دموعها. المهم النتيجة!

أخذتني للجلوس إلى مقعد فارغ، وبدأت في قضاء أسوأ لحظات كريهة في حياتي، أصوات النساء لا تتوقف عن الدّويّ في المكان، أحاديث عن الموت، وقصص عن الفواجع والمآسي، وأخبار عن حياة البعض وآخر مستجداتهم، وحتى بعض الغرائب والعجائب. لا يمكنني عزل تلك الأصوات عن أذني، ومن الصعب أن أغادر مبكرًا، وأنا الصديقة التي ينبغي أن تشارك صديقتها في تلك المحنة حتى تتجاوزها.

مضت ساعات وأنا أحاول قراءة القرآن بهدوء في مكاني لأنفصل عن كل الأصوات المرتفعة حولي، وتحاملت على نفسي حتى مضت آخر زائرة فتقدمت «هند» وجلست بجانبي، ثم شكرتني على وجودي، كان التعب قد نال منها وبدت لي متهالكة تمامًا؛ حيث استطعت استجلاء صفرة وجهها وذبول عينيها وشحوب بشرتها.

ربتّ على كفها وأنا أواسيها مجددًا وأدعو الله لها بالمزيد من الصبر والسلوان، ثم بدأت أقص عليها بعضًا من فواجعي مع الموت؛ لأخلص إلى حقيقة أننا جميعًا راحلون، وأننا الأحق بالحزن والأسى فما زلنا في اختبار، بينما تحلل الراحلون منه واستراحوا.

في تلك الأثناء تقدمت والدة «هند» تحمل صينية من الساندويتشات الخفيفة وبعض العصير، وضعتها أمامنا وهي تطلب مني أن أقنع «هند» بتناول بعض ما فيها حيث أنها لم تتناول شيئًا منذ علمها بخبر وفاة شقيقتها.

لم يكن أمرًا يدهشني، فعند وفاة إحدى صديقاتي حين كنت لا أزال طالبة في المدرسة، توقفت عن الطعام لثلاثة أيام قبل أن تزورني صديقة مشتركة وتسحرني ببعض الكلمات التي لا أستطيع تذكرها حتى اليوم إلا أنني أذكر كيف أوقفت دموعي فجأة ولم تهطل بعدها مجددًا، وسلوت صديقتي الميتة بعد أن ظن الجميع أنني لاحقة بها لا محالة.

بعض الكلمات تسري في العروق، تتسلل إلى أوتار القلب، تهاجم قوة العقل، تحول كل شيء وكأنها السحر الذي يغرينا أحيانًا بجلب المستحيل. لكنني دائمًا كنت مؤمنة أن القدرة على اختيار الكلمات ومزجها بقدر كاف من العاطفة ثم الدفع بها في الوقت المناسب لهو شيء احترافي لا يجيده الجميع، إنه موهبة يختص بها البعض دون غيرهم.

تساءلت في نفسي إن كان يمكنني اكتساب هذه الموهبة ولو لدقائق من أجل «هند»، يا للهول.. أنا مستهلكة تمامًا، ما زلت لم ألملم نفسي بعد رحلة الشتات التي قضيتها مع «منال» خلال ساعات البارحة، دعوت الله في سري أن يساعدني فأنا حقًّا مستنفذة.

قلت لـ «هند» بنبرة رجاء.. لقد نال منك التعب كثيرًا، وعليك أن تتناولي شيئًا من أجلي فقط، أرجوك لا تردّي يدي- قلت ذلك وأنا أناولها شطيرة صغيرة من الجبن والمرتديلا- فتناولتها مني لكنها لم تأكلها وظلت تمسك بها، فتابعت:

– هند، إنه قضاء الله وقدره، ولن يبدل حزننا فيه شيئًا، ثم أنك بحاجة للقوة كي تتمكني من الصلاة من أجلها والدعاء لها، فهل تودين ذلك أم ترغبين المكوث في السرير طوال الوقت عاجزة. إن التواصل الوحيد الذي يربطنا بمن رحلوا هو الدعاء والأعمال الصالحة فلا تحملي نفسك ما لا طاقة لك به، تجلدي وتناولي شيئًا كي نبدأ معًا في الصلاة من أجلها.. ما رأيك؟

بدت هند متقبلة لحديثي وحركت يدها إلى فمها؛ لتبدأ في تناول الشطيرة ببطء، بينما كانت الدموع تنحدر من زوايا عينيها في هدوء.

قلت في نفسي: لا بأس. إننا بحاجة للبكاء في مثلك هذه الأحوال؛ لتطهير النفس من وخم الألم. وتناولت شطيرة وأخذت آكلها مرغمة؛ لأحمل «هند» على استكمال شطيرتها.

بعد قليل نهضت لأجلب حافظة الشاي التي كانت تستقر في مجموعة مع الكثير من الفناجين الزجاجية في وسط القاعة وعدت إلى جوار «هند»؛ كي أسكب فنجانين من الشاي لنا– وأنا أقول: إننا بحاجة للتركيز قليلًا؛ فأمامنا الكثير لنفعله قبل أن أغادر.

بعد حوالي نصف الساعة من المواساة وتبادل أخبار الموت والفقد بدت لي «هند» أفضل حالًا مما كانت عليه عند حضوري، اقترحت عليها أن نتوضأ ونذهب إلى حجرتها؛ كي نصلي أو نقرأ بعض السور ونهديها إلى روح شقيقتها المتوفاة، فاستجابت.

وفي حجرتها الباردة جلست على طرف سريرها بينما اخترت الجلوس في مقعد مقابل بعد أن صلينا ركعتين، كانت قد بدأت في قراءة القرآن، بينما بحثت في هاتفي عن برنامج القرآن ورحت أقرأ من خلاله، وأنا استرق النظر إليها بين الفينة والأخرى؛ لأطمئن أنها بخير.

يبدو أن برنامجي الصغير قد نجح؛ فلمست السكينة قد حلت بها وشعرت أنها باتت هادئة إلا أنها في حالة أشبه بالشرود الذهني.

انتهيت من القراءة ودعوت الله أن يخفف عن المتوفاة وطأة السؤال ووحشة القبر وأن يجعلها من أهل الجنة الخالدين وذكرت في دعائي أيضًا أولئك الموتى الذين رحلوا عني؛ لينالهم خير الدعوات، ثم أغلقت هاتفي ونحيته على طاولة جانبية وأنا أتوجه نحو «هند» التي راحت تشكرني على هذه الوقفة، فوبختها ممازحة على ذلك وأنا أعلل بأنه واجبي.

تحدثنا قليلًا، ثم تناولت هاتفها من درج صغير بجوار سريرها وأخذت تقلبه قليلًا، ثم قدمته لي وهي تطلب مني قراءة محادثة تمت بينها وبين شقيقتها الراحلة وقالت لي إنها كانت آخر محادثة بينهما.

لم تكن لي رغبة حقيقية في معرفة محتوى المحادثة، فغالبًا لا أجد سهولة في فهم محادثة ليست لي وإن قرأتها كاملة، أظل أشعر أني تائهة في لملمة الموضوع، ولذلك حاولت ألا أركز في قراءة تلك المحادثة التي

أصبحت جزءًا من الماضي هي وإحدى أطرافها، لكنني تراجعت عن رأيي حين وقعت عيني على جملة كتبتها الراحلة قالت فيها: لقد سئمت. لا أحد يشعر، ظل الجميع يتجاهلون ألمي حتى وصلت إلى هذه الحال المزرية. لا أستطيع الحركة.

عند تلك الجملة أعدت قراءة الحوار مجددًا:

هند: سارة، سارة. هل أنت مستيقظة؟ أجيبيني.

سارة: نعم، أنا مستيقظة.

هند: كيف تشعرين اليوم؟

سارة: لست أفضل من الأمس.

هند: هل يمكنك النهوض؟

سارة: كلا، لا أستطيع.

هند: حالتك الصحية تزداد سوءًا، لماذا إذًا لا تعودي؟

سارة: وكيف أعود إن كنت لا أستطيع الحراك؟!

هند: ومتى يمكنك ذلك؟

سارة: لا أدري متى يمكنني السير مجددًا.

هند: من معك الآن؟ هل يأتي أحد لزيارتك؟

سارة: حضر زوجي ومعه كيس من الدم قبل قليل.

openkan.com

هند: أشعر أنك لست على ما يرام.

سارة: لقد سئمت. لا أحد يشعر، ظل الجميع يتجاهلون ألمي حتى وصلت إلى هذه الحال المزرية. لا أستطيع الحركة.

هند: أرجو أن تكوني بخير في المرة القادمة، وأن أراك قريبًا.

سارة: يعلم الله متى سيكون ذلك.

هند: سأتركك الآن لترتاحي.

سارة: كما تريدين.

ليس هناك أدنى شك في حالة الاكتئاب التي كانت تمر بها «سارة»، كلماتها تنضح يأسًا، والغريب أن ما كتبته «هند» إليها يكاد يخلو من العاطفة، شعرت وكأنها تؤدي واجبًا كريهًا وهي تكتب إلى «سارة»؛ لتطمئن عليها. حقًّا لم أتوقع لحظة أن تكون علاقة الشقيقتين باردة إلى ذلك الحد، وربما لم تكن باردة وإنما غابت عنها مسحة الذكاء العاطفي. أكاد أجزم الآن أن ثلثي معاناة «سارة» لم تكن سوى أوجاع نفسية بحتة، لقد كشفتها كلماتها حين كتبت لا أحد يشعر، إنها إذا كانت تصارع الوحدة وتعاني مرارة التخلي وضعف التعاطف.

كتمت في نفسي تلك الدهشة التي أصابتني وأنا أقرأ آخر كلمات لفتاة قضت وحيدة في بلاد بعيدة إثر مرض سخيف لم يكن يحتاج سوى

obeikan.com

معنويات عالية وحب للحياة يدفع صاحبته للمقاومة، وهكذا يموت كثير من الناس، لا يقتلهم سوى تخلي من حولهم عن دعمهم ومنحهم الحب الذي يكفيهم للمقاومة. إننا نموت فقط حين لا يعود أحد بحاجة إلينا!

تمتمت ببعض كلمات المواساة وأنا أعيد هاتف هند إليها، واحتفظت بانطباعاتي التي تركتها تلك الكلمات في نفسي وعقلي، وقضيت القليل من الوقت، ثم استأذنتها للمغادرة وعدت إلى المنزل.

إنها العاشرة مساء..

تذكر ت كيف كانت حياتي حتى عام مضى، حيث لم يكن من حقي مغادرة المنزل ولو مت جوعًا، لم أكن أستطيع وصف حالتي حينئذ سوى بالسجينة، كيف تغير الآن كل ذلك لمجرد أن رحل أخي الذي دأب على منعي من كل شيء مع عروسه ليتدارك ما تبقى من سني حياته وتركني بمفردي أصارع الوحدة، وأضطر لتعلم كل شيء كيلا تلفظني الحياة كما تفعل بكل الضعفاء.

لم أكن قوية دومًا، بل كثيرًا ما عوتبت في ضعفي واستكانتي، لم يكن إدراكي كاف آنذاك لأفهم الحياة بشكل صحيح، كنت أفسر الأمور وأزنها بميزان القواعد التي ألقتها في رأسي الكتب والمواعظ، لم تمكنني حياة العزلة أن أطلع إلى مدى الاختلاف بين ما تضمه

الكتب وما يحدث على أرض الواقع، اصطدمت كثيرًا بما فيه، وبكيت أكثر وأكثر؛ حيث فهمت أن الدروس المتلقاة في الكبر أقسى بكثير، فالصغير لا يعتد للكرامة، ولا يعتني كثيرًا بالسخرية، ولا يوجعه حتمًا ألم التفريط، عوامل كثيرة تجعل من دروس الحياة قاتلة أحيانًا للكبير. لكن لحسن الحظ ربما.. ما زلت أعيش، إلا أنني أعيش وحدي في عالم من الذكريات والأحداث العصيبة.

بدلت ثيابي وذهبت إلى المطبخ؛ حيث صنعت شطيرة صغيرة وكوبًا من العصير، ثم عدت إلى حجرتي فتناولتهما وأنا أغالب النعاس الذي لف رأسي. وعدت أدفع جسدي بصعوبة إلى الحمام لأغسل فمي وأسناني قبل أن أعود إلى فراشي وأذهب في نوم عميق.

الساعة التاسعة والربع صباحًا..

لقد نمت بما فيه الكفاية، ومن حسن الحظ أنني في إجازة سنوية تمنحني بضعة أيام من الراحة، وإلا لكنت فقدت عملي جرَّاء هذه المواعيد المفاجئة ذات الأحداث المرهقة.

مكثت في فراشي يغمرني الكسل ومرت في رأسي صورة المحادثة التي قرأتها بالأمس بين «هند» و «سارة» المسكينة. لم تشعر حتى بتعاطف شقيقتها، بل كانت كلمات «هند» إليها فجة أحيانًا. ولست أدري ما الذي حملها لتكتب

لها أن حالتها تزداد سوءًا، هل غاب عنها تأثير كلمات مثلها على معنويات الفتاة، أم أن لهفتها لمعرفة جديد حالتها أنستها مراعاة ذلك، أم غلبها إحباطها فظهر دون أن تشعر في كلماتها إليها. على كل حال.. لقد شعرت طوال المحادثة أن «سارة» تعاني قلة الحب والاهتمام- رحمها الله-.

رفعت كفي إلى السماء، ودعوت قائلة:» أرجوك يا رب، لم يعد في وسعي تلقي المزيد من الأخبار التعيسة» ثم نهضت وسرت إلى الحمام؛ لأغتسل حيث لم تحملني قوتي على ذلك ليلة أمس.

شعرت ببعض النشاط وقررت أن أصنع كوبًا من الشاي بالحليب؛ لأتناوله مع قطعة صغيرة من الكعك قبل أن أبدأ في التفكير كيف سيمضي اليوم.

من الضروري أن أكون مع «هند» هذا اليوم أيضًا، ولا بد أن أساندها حتى الغد على الأقل، أشعر بانقباض كلما تذكرت تلك الأجواء الجنائزية. فليساعدني الله!

فتحت حاسوبي وجمعت أوراقي الأخيرة لأكمل كتابة خواطري حول الأحداث التي جرت لي مؤخرًا، فقد اعتدت على تدوين آرائي حول ما أشاهده وأمر به في حياتي لعله يكون لاحقًا بذرة رواية حافلة ذات يوم، فنحن نموت حقًّا عندما لا نترك خلفنا أية بصمة في عقول الآخرين، ولذلك كان علي أن أترك بصماتي في هذه المقالات والخواطر لمن بعدي؛ كي

يأخذوا منها ما يشاءون. فهي على أية حال مجرد محاولات لفهم الحياة واكتشاف ألغازها التي لا تنتهي.

مرت حوالي ثلاث ساعات وأنا جاثمة أمام الحاسوب وكومة الورق التي تبعثرت على صفحة المكتب، فما زال بريق الأوراق ولذة ملامستها تغريني وتحفزني على الكتابة على الرغم من حاجتي إلى إعادة ما دونته عليها بواسطة الحاسوب، إلا أنها تظل الأقرب إلى نفسي والأكثر راحة لعيني وأصابع يدي.

وخلال هذا الانغماس انبثق من طرف الشاشة مربع المحادثة الخاص بأحد مواقع التواصل الاجتماعي الذي اشتركت فيه قبل ما يقارب العام حين مررت بحالة ملل لا تطاق، وككثير من الناس في هذا العالم أصبحت مثل هذه المواقع وصفتهم العلاجية المتفق عليها للقضاء على الملل، وهكذا سجلت صفحتي الخاصة، ورحت أبحث فيه تارة عن صديقات الطفولة، وتارة عن مجموعات مسلية، وأحيانًا أفتش عن صفحات افتراضية في عقلي وأظن أنني سأجدها وأصل فيها إلى معلومات أبحث عنها، ومع الوقت تعرفت بـ «منى» التي تدعوني الآن للمحادثة، وهي فتاة لم ألتقيها شخصيًّا؛ حيث تفصلنا مسافات شاسعة فوق هذه الأرض، لكنني ألفتها واعتدنا قضاء بعض الوقت معًا في مناقشة مواضيع مختلفة، وقد كانت تملك مقومات الصديقة المحبة، والثرية بالأفكار والخبرات.

إنها تعمل سكرتيرة في إحدى المؤسسات، وهي خريجة علوم إدارية، متزوجة ولديها طفلان، عمرها يبحر في الأربعين، وهي ذكية، نشطة، وصاحبة إرادة قوية، إلا أنها تمر بحالة من التخبط مؤخرًا، ولا أظنها وحدها من تعانيها، فالأحداث في المنطقة عامة، والتحولات الرهيبة في سلوكيات الناس وأفكارهم ومعاملاتهم تثير الحيرة حقًّا لأولئك الذين لا يزالون يتشبثون بالقيم والمبادئ؛ فيصطدمون في كل مكان بأشخاص تخلوا عنها وأصبحوا يرون كل من يتقلدها غنيمة تصلح للاستغلال أو مثالًا للحماقة والرجعية.

وبما أن الأحداث التي وقعت مؤخرًا قد أثارت مشاعري، واستفزت تفكيري في المستقبل، فقد شعرت أن «منى» قد ظهرت في الوقت المناسب، وبدأت في محادثتها..

- مرحبًا منى.

- أهلًا أمل. كيف حالك اليوم؟

- جيدة إلى حد ما.

- هل من جديد؟

- أخبريني أوّلًا ما الجديد لديك لأخبرك بجديدي؟

- حسنًا. في الحقيقة لا شيء مهم. المتاعب اليومية في العمل ومع الأولاد، فماذا لديك؟

– إذًا. أنت مستعدة لمشاركتي حالة الحيرة التي أمر بها هذه الأيام؟

– ما الأمر؟ أخبريني.

– حقيقة إنني أفكر بجدية في حياتي، أعني إلى متى يمكنني قضاء وقتي في هذه الوحدة؟ سؤال أحمق. أليس كذلك؟!

– إمممم. يبدو أنك بدأت تعودين إلى رشدك وتفكرين في «ماجد»!.

– في الحقيقة، أفكر فيه. لكني لم أغير رأيي بشأنه، وعلى كل حال فليس هناك بديل!

– الأمر لا يحسب بهذه الصورة يا «أمل»، أعلم أن الوقت يركض، ولكن ينبغي أن تبادليه الحب وتقتنعي به كرجل قادر على حمايتك ورعايتك ومشاركتك الحياة، وليس المتوافر وحسب.

– وهل تصدقين أنه يحبني، لا تكوني ساذجة!

– ركزي معي يا لوح الثلج، إنك لم تجربي الحب من قبل حتى تتمكني من توصيف مشاعر هذا الرجل، وبما أنني أكبر منك قليلًا، وأكثر منك خبرة بحكم علاقاتي ومشاهداتي فأنا أقول لك إنه يحبك فعلًا، وإلا لما حاول مرارًا أن يكون له دور مؤثر في حياتك، بل كثيرًا ما عرض عليك المساعدة فصددته.

– حقًّا، أشعر بالأسف لأجله أحيانًا، لكني لم أكن لأقبل مساعداته وهو لا يرتبط معي بأية صلة، ولكن تعالي هنا وأخبريني ما هذا اللقب الذي

تصمينني به.

– هههههه. لا تنزعجي مني يا صديقتي ولكن سأقول لك بصدق إنها الصورة التي رسمتها لنفسك في مخيلتي، فأنا أشعر أحيانًا، وكأنك جمدت مشاعرك خلف قالب ثلجي يموه صورتك أمام الآخرين ويفصلك عن التفاعل معهم أحيانًا. فكري مثلا بـ«ماجد»، حين أخفق في إيصال مشاعر الاهتمام عبر محاولات المساعدة المرفوضة لم يجد بدًّا من عرض فكرة الزواج مباشرة ظنًّا منه أن هذا ما سيجعلك تهتمين به وتشعرين بالثقة فيه، فماذا فعلتِ؟

– تهربت!

– هل تصدقي أنني رغم معرفتي بك منذ عام، وقضاء الساعات الطوال في التحاور معك إلا أنني لم أجد تفسيرًا يبرر موقفك منه سوى الخوف.

– الخوف؟!

– نعم. أعتقد أنك تخافين الزواج، فأنت لا تملكين أية خبرة في هذا الخصوص، كما أن قلة اتصالك بالآخرين تحرمك من مجرد تكوين فكرة واضحة عنه، وربما تشعرين بالقلق والاضطراب، أو تخشين ألا يعجب بك، أو شيء كهذا. أليس كذلك؟!

– إمممم. لدي بعض المخاوف حقًّا.

– حسنًا، وإلى متى تظل هذه المخاوف، حتى يرحل عنك إلى الأبد،

obeikan.com

أو يتقدم بك العمر!

– لقد سئمت من هذه العبارة، أشعر وكأنها باتت كابوسًا يطاردني في كل مكان، هل يجب أن أموت إن تقدم بي العمر لمجرد أني لم أعد أثير الإعجاب مثلًا!

– أعلم أنها مؤذية لكنها الحقيقة أيضًا، أنت متطرفة جدًّا في مشاعرك وأفكارك، تودين أن يكون كل شيء كما يجب وهذا خيال لا وجود له في هذا العالم المتناقض، انظري حولك لتشاهدي مدى التغير الذي أصاب الناس منذ عشرة أو عشرين عامًا.

– إنه أمر مقلق حقًّا، إنني أواسي نفسي أحيانًا بالنظر إلى هذه الملاحظات فأقول، كيف لي في هذا الوقت أن أحصل على رجل ليس له علاقات نسائية، أو كيف لي أن أصبح أمًّا وأربي أبنائي على القيم التي أؤمن بها وأنا لا أرى لها وجود تقريبًا في مسرح الحياة. حقًّا إن أمهات هذه الأيام يواجهن أصعب التحديات التربوية.

– نعم إنها تحديات بالنسبة لمن هي مثلي ومثلك، أما الأكثرية فقد ركبوا الموجة وأصبحوا يرون أن التحضر يقتضي التخلي عن قيم الماضي وعاداته كثيرة القيود.

– هذا ما يجعلني أقول لنفسي أحيانًا إن الله يعلم أنني لا أستطيع

احتمال هذا التحدي، ولهذا أعفاني من مسؤولية الأمومة

– لا تكوني حمقاء، فأجر المجتهد مضاعف، وهو أفضل من الهارب المنسحب، وأنت قوية فلا تدعي الضعف وتحاولين تبريره.

– بل أنا أضعف مما تتصورين يا «منى»، لقد تعبت حقًّا، لدرجة أني بت أتمنى أن أصحو ذات يوم لأجد أنني كنت أحلم، وأن حياتي كلها لم تكن سوى كابوسًا تبدد حال يقظتي.

– الحياة بأسرها كذلك، فالناس نيام وإذا ماتوا استيقظوا.

– لا أدري حقًّا أين تكمن حالة الوعي الحقيقية، في الموت أم في الحياة!

– تبدين تائهة، هل حدث شيء ما خلال الأيام الماضية؟

– بل أشياء. لقد التقيت صديقة قديمة تزوجت مؤخرًا من مُسنّ، وراحت تحكي لي عن متاعبها معه، ولم أكد أستفيق من التفكير في مشكلتها حتى توفيت شقيقة صديقة أخرى، هاتان الحادثتان أثرتا في نفسي كثيرًا، ولذلك رحت أفكر في حياتي وأتساءل كيف ستكون نهايتي!

– هيا، هيا أيتها الكئيبة، واصلي الحديث وجُرِّينا إلى سرادقات الموت وأفنية المقابر.

– بعض الحالات يا «منى» يصعب أن نصفها كما نشعر بها تمامًا، وهذا ما أمر به الآن، صدقيني إنني أحيانًا أشعر بالحماس حين يخيل إلي أنني سأموت

وأرحل إلى عالم آخر ألتقي فيه مع من رحلوا ونعيش معًا حياة أخرى مختلفة، فهذه الحياة أضحت بغيضة إلى نفسي، ولا أجد فيها ما يشدني إليها، لكني مع هذا، وحين أتخيل تلك الوحدة والصمت المطبق وضيق المكان في باطن الأرض يتملكني الخوف، وأشفق على نفسي، كيف لمن عاش الوحدة على وجه الأرض أن يعيشها مرة أخرى في باطنها، ولكن..

- ولكن دعينا من هذا الحديث وكلميني عن «ماجد»، هل اتصل بك مؤخرًا؟

- لم يتصل ولم يرسل، لقد سئم مني، وربما ظن أنني أسخر من مشاعره.

- سوف يتصل حتمًا، ولكن أخشى أن تسيئي تلقي اتصاله فيرحل بالفعل دون رجعة.

- وما الذي يحمله على الاتصال بي الآن- في نظرك- ما دمت بهذا الجمود!

- أشعر أنه تعلق بك، ولا تسأليني كيف ولماذا فإنما هو حدس وحسب.

- وما تراه يتغير إن حدث.

- رباه. هذه الفتاة تكاد تصيبني بالجنون.

- أخبريني، ما الذي يمكن أن يتغير؟

- السؤال الأصح: ما الذي يفترض أن يتغير؟

- حسنًا،كما قلت.

- ببساطة.. أنت.

– أتغير أنا؟!

– يتغير جمودك، وتحجر عقلك، أشعريه ولو للحظة بأنك أنثى، دعيه يلتمس لهفة الاشتياق في قلبك، إنه بحاجة لأن يشعر بأهميته لديك، ومدى افتقادك له.

– كلما حاولت، أو فكرت، تذكرت زوجته وتخيلت أنني في موضعها وكيف سأتمزق غيظًا من تلك التي تحاول التقرب إليه.

– أنت لم تتقربي إليه، هو الذي فعل.

– أيًّا كان، المهم أنني سأمنحه الفرصة وأعطيه القبول ليتمادى.

– وهل أنت الوحيدة في العالم التي تحب رجلًا متزوجًا.

– دعينا من هذا الهراء يا «منى»، تخيلي لو أنك في مكانها، لن ترددي في قتلي، أليس كذلك؟!

– هههههههه، ولو أن الأمر يصعب تصوره، إلا أنه لن يتوقف عند قصته معك، وسوف يبحث عن أخرى إن لم تستجيبي، فالرجل حين يقرر الزواج ثانية من الصعب جدًّا أن يتراجع عن هذه الرغبة، فهي تأتي نتيجة لتفكير طويل ومتراكم.

– حسنًا. يبدو أننا لن نصل اليوم إلى نتيجة من هذا الحوار، وللحق فأنا متعبة جدًّا، وربما يفقدني التعب قدرتي على التركيز والاستجابة.

– لا بأس يا حبيبتي، سأدعك ترتاحين. ولكن عديني أن تفكري هذه

obeikan.com

المرة بجدية.

- سأفعل بإذن الله، والآن إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

الواحدة والنصف مساء..

كان الألم قد بدأ يضرب عضلاتي وينقر فقرات ظهري فنهضت لأتمشى قليلًا خلال الحجرة وأنشط دورتي الدموية بعد هذا الاعتكاف المرهق، ورحت أذرع المكان جيئة وذهابًا وأقوم بحركات عشوائية لتحريك أكبر عدد من أوصالي، وتنفير طيور أفكاري التي راحت تحوم فوق رأسي كنسور جائعة تستعد للانقضاض على فريستها، وأخيرًا قررت أن أستلقي على فراشي لأنال قسطًا من الراحة.

يا للهول. الهاتف من جديد، سحبته من طرف الطاولة الجانبية للسرير ورحت أتتبع مصدر التنبيه. إنها رسالة مباشرة من ابنة خالتي حنان، تخبرني فيها أن ابنة شقيقتها الكبرى قد أنجبت مولودها الأول لتصبح أصغر جدة في العائلة، لا أدري حقًّا إن كانت تنقل إلي الخبر بهذه الصورة فرحًا، أم محاولة لإثارة حزني ويأسي من أن أصبح أمًّا في يوم ما، فإذا كانت هي التي تصغرني سنًّا قد أصبحت أصغر الجدات فماذا أكون قد أصبحت أنا. لقد أصبحت بصورة ما جدة، هكذا ببساطة ودون

أن أضطر للزواج أو الإنجاب!

إننا نغرق في مسراتنا أحيانًا إلى درجة تجاهل مشاعر الآخرين المكشوفة كجراح لا تحتمل المساس بها، وقد يكون لنا العذر في هذا التناسي، لكن العار كل العار أن نحول أفراحنا إلى أحزان لآخرين تحت أية ظرف، ولأي سبب كان، فما الذي يحمل «حنان» يا ترى لأن توجعني باختيار هذا السياق للخبر، لا بد أنني أتوهم!

أرسلت إليها التبريكات مع رموز من الورود والأكاليل تعبيرًا عن ابتهاجي كما يحدث عادة عند استقبال خبر من هذا النوع، فما الذي يمكن أن يحولني إلى (غولة) تكره أفراح الآخرين وتستقبلها بالغيظ. لا شيء من هذا لدي.

الرابعة إلا ربع عصرًا..

قمت بالكثير منذ الصباح، كتبت مقالًا حول العلاقات الإنسانية وأثر التكنولوجيا عليها، تصفحت الكثير من المواقع وشاهدت بعض الفيديوهات التثقيفية، ناقشت بعض الأفكار مع «منى»، كما هاتفت «هند» للاطمئنان عليها، وأخيرًا بدأت في الاستعداد لزيارتها مساء، وفتحت دولاب ملابسي على مصراعيه؛ لأفتش عن بذلة ملائمة.

لقد مضى يومان منذ التقيت «منال» لكن الحديث الذي دار بيني وبينها

لا يغادر رأسي، بل كالعادة كلما أدرته في رأسي برزت أمامي مقترحات وحلول لم تسعفني في وقتها وتمنيت لو استطعت أن أحدث «منال» عنها فلعلها تكون ذات فائدة لها، قررت أن أتصل بها لأطمئن على وصولها ومدى تحسن الأجواء ما بينها وبين زوجها، وترددت كثيرًا كما هي عادتي قبل الاتصال بإحدى صديقاتي المتزوجات؛ حيث افترض أنني قد أصادف وقتًا غير ملائم مثلًا، لكنني استجمعت شجاعتي ورحت أطلب رقم هاتفها المحمول الذي لم يرن طويلًا حتى أجابني صوت ذكوري أجش بنبرة يشوبها الغموض أدركت أنه لزوجها بلا ريب، سألته عنها فأخبرني أن الطائرة التي تقلها مع طفليها إلينا قد فقدت من الرادار ولم يعثر عليها حتى تلك اللحظة، وصفعت جبيني وأنا أستعيد خبر الطائرة التي فقدت هذا الصباح وتداولته العديد من المواقع الإلكترونية، ويرن في أذني صوت «منال» وهي تقول: ربما لا نلتقي مجددًا.

هرعت إلى التلفاز وأخذت أفتش في القنوات عن الخبر، شاهدت الطائرة التي فقدت قبل رحلتها، وجموع الأهالي الغاضبين الذين تدفقوا في أروقة المطار متسائلين عن مصير ذويهم، والعرق المتصبب فوق جبين المسئولين وهم يدلون بأحاديثهم حول ما حدث للطائرة، مازال هناك أمل، إلا أن ملامح المسئولين تدعو للارتياب وكأنهم يخفون شيئًا ما، ثم ما معنى أن تفقد طائرة بهذا الحجم دون أن تكشفها الرادارات أو الأقمار الصناعية!.

أوه يا «منال». أرجو أن يلطف الله بك وبولديك.

وتذكرت وأنا في غمرة قلقي أن «منال» لم تمض على رحلة ذهابها ثمان وأربعون ساعة، وهذا يعني أنها عادت غالبًا في اليوم التالي لموعد وصولها إلى وجهتها، وقطبت جبيني وعصرت صدغاي لأهرب من دوار مفاجئ وأنا أحاول التركيز في تفسير ما حدث أو ما يمكن أنه قد حدث. فلم يكن بوسعي غير توقع نشوب خلاف مع زوجها قررت إثره العودة إلى الوطن فعاجلتها الأقدار بهذه الحادثة الغريبة. ما أتعس أن تكون هذه نهايتها. لا يمكنني تخيل الأمر !

تركت جهاز التحكم في التلفاز، ورحت أبتهل إلى الله أن يحفظها والآخرين من المخاطر، ويظهرها آمنة في مكان ما قريبًا.

يا لهذه الحياة الغريبة التي لا تفتأ تذهلنا بمفاجآتها المستمرة، لا يمكن أن هذه الفتاة قد ظهرت في حياتي بعد كل هذا العمر لمجرد أن تودعني تاركة في قلبي إرث أوجاعها التي لم تجد بدًّا من تحملها طوال الوقت في صمت. ماذا عساي أن أفعل، وما قيمة أن أخبر «هند» بلقائنا وقد فرقتنا الأقدار مجددًا. أتراها كانت رسالة القدر لي كي أعيد التفكير في حياتي ومعنى وجودي؟!

يا إلهي.. ارحمني من هذه الأخبار فلم أعد أحتمل!

ألقيت بجسدي الذي داهمه الإرهاق بغتة على السرير ورحت أفكر، ثم طرأ على ذهني السؤال الأهم الذي يبدو أنني أغرقت ذاتي في كل الأحداث التي مرت بمن حولي فرارًا من مواجهته، ماذا عني، وإلى متى أظل وحيدة ترهبني الوحدة، ويخيفني الغد، أتظاهر بالصمود، وأبدي التجاهل، لكن داخلي يصرخ مذعورًا طلبًا للأمان. أين الحب، والأبناء، أين الحياة الحية، أتراني أخادع ذاتي وأنا أبحث عن مبررات لتقبل فلسفة هذا الموت في صفحات الكتب، ومحاضرات التنمية البشرية التي تعد بالمستحيل كالمشعوذين تمامًا. إنني أفهمهم جيدًا، فالأمر لا يتطلب سوى إقناع، تغيير فكرة، وهذا كفيل بتغير نظرتنا للأشياء بحيث تبدو الألوان الباهتة أكثر نظارة وجمالًا فنحبها بعدما كنا نرفضها ونتوجس منها خيفة. هذا كل شيء.

لكنني لا أريد هذا، لا أريد أن أرى جمال التعاسة التي أعيشها، أود لو أقتلعني من جذوري وأعيد غراسي في تربة أخرى أخصب وأجمل، لا أحتاج فيها أن أهرع إلى وسائل الشعوذة النفسية القديمة أو الحديثة لأحبها وأستمتع بجمالها ولذة كوني فيها، أرى وجوهًا تعلوها ابتسامات الصفاء والبراءة حقًّا لا تخيلًا، أشم عبق هوائها النقي بعيدًا عن ملوثات المدنية المزيفة، أجد فيها ذاتي الحقيقية، ذاتي البسيطة الرقيقة لا تلك المتخمة بالصدمات والخيبات الممتلئة بالشجن.

لم يقتحم حالة التأمل العميقة التي رحلت فيها سوى صوت الهاتف

ينبهني إلى وجود رسالة..

- هل أنتِ بخير؟!

كانت هذه الرسالة التي اقتحمت تفكيري لتعيدني إلى الواقع، إنها من «ماجد»، ذلك الذي قضيت محادثتي الطويلة مع «منى» في الجدل بشأنه منذ ساعات، وهو شاب يصغرني بأعوام، جمعنا مشروع عمل صغير اقتصر تواصلنا خلاله على الرسائل أو برامج المحادثة المباشرة، وهكذا أمضينا عامًا من العمل المستمر دون حاجة للمهاتفة مطلقًا، وفي نهاية العام كان قد أدركني التعب وتسلل إلى قلبي القنوط من كل ما أفعله؛ فقررت أن أكتفي بما أتممت معه وأتوقف عن الاستمرار، ونقلت إليه طلبي عبر رسالة نصية ففوجئت به يستأذن للاتصال، لم أستطع رفض طلبه؛ خاصة وأنني لم ألمس من جانبه أية محاولة للتمادي أو الإساءة طوال العام، فوافقت وأنا أحاول استجماع شجاعتي ورباط جأشي حيث لم يسبق أن حادثت رجلًا منذ سنين عديدة، ولم يكن حديثي مع أحدهم يتجاوز جملتين أو ثلاث، أما هذا فيبدو أنني سأتجاوز في حديثي معه تلك المدة القصيرة، هكذا كان توقعي وقليلًا ما يخطئ. وهذا ما أربكني.

- مرحبًا أمل.

- أهلًا.

- حسنًا. هل يمكن أن تخبريني ما السبب في رغبتك ترك العمل معي؟

– لا شيء محدد، شعرت بالإرهاق وعدم القدرة على المواصلة فقط.

– لهذا سبب حتمًا. هل أرهقتك بطلباتي الكثيرة؟

– كلا. لا مشكلة في هذا الشأن، ربما يكون الأمر شخصيًّا فقط.

– هل لديك مشكلة، أو لدى أحد ممن في المنزل مشكلة.

– كلا. ليس إلى هذا الحد.

– لقد عملنا معًا لمدة ليست صغيرة، ولا بد أنك استطعت أن تدركي من خلالها جديتي، وعلى هذا الأساس أسألك وأنا أحاول المساعدة.

– أشكرك حقًّا. لست بحاجة للمساعدة.

– لا أود إحراجك بكثرة أسئلتي، ولكني لمست فيك الجد والمثابرة؛ ولهذا أرى هذا القرار مفاجئًا، وينم عن مشكلة ما.

– لا مشكلة فعلًا، ولكني اعتدت ألا أحمل نفسي عبء ما قد أقصر في أدائه.

– هل يمكنني طرح سؤال شخصي؟

– تفضل.

– هل أنت متزوجة؟

– لا.

– وكم يبلغ عمرك؟

obeikan.com

– هذا السؤال لن تجيبك عليه أي امرأة.

– ولهذا سألتك؛ وليس امرأة أخرى.

– ماذا تعني؟

– كم عمرك؟

– وما شأن عمري بما نتحدث بشأنه؟

– أحاول الوصول إلى إجابات عن أسئلة في رأسي.

– إذًا، عليك تخمين ذلك؛ لأني لا أستطيع الإدلاء بإجابة عنه.

– أتوقع أنك ما بين الخامسة والثامنة والثلاثون.. صحيح؟!

– لا أدري، ربما.

– حسنًا. يمكنني الموافقة على طلبك في حالة واحدة.

– ما هي؟

– أن تخبريني كيف ستمضي وقتك فيما لو تركت العمل معي؟

– في الحقيقة سأكتفي بالتقاط أنفاسي والاستمتاع بعزلتي.

– إذًا، لا شيء بديل.

– نعم.

– هل يحق لي سؤال شخصي آخر؟

– تفضل.

obeikan.com

- لماذا لم تتزوجي حتى الآن؟

- نصيب.

- كل شيء نصيب، ولكن هناك أسباب حتمًا.

- أسباب خاصة.

- ألا يمكنني معرفتها؟

- لا أجدني راغبة في ذكرها.

- هل يمكنني التخمين؟

- لا بأس.

-الكبرياء أو عزة النفس؟ أو ربما..

- (مقاطعة): كنت متأكدة أن هذا ما سوف يتبادر إلى ذهنك، فهذه الأسباب المتداولة في رؤوس الناس غالبًا.

- إذًا، هو أمر يقع خارج إرادتك.

- ربما.

- هناك من يمنع زواجك مثلًا؟

- تقريبًا.

- هل هو والدك؟

- والدي متوفى- رحمه الله-.

obeikan.com

– رحمه الله ورحم أمواتنا. عمتي أيضًا توفيت منذ أسبوعين.

– رحمها الله.

– هل تودين معرفة ما يدور في رأسي بشأنك؟

– نعم.

– أتوقع أنك تعانين الروتين، وأن هناك من يسيطر على حياتك ويسيرها كما يريد رغمًا عنك!.

– معرفتنا بحقائق الأمور لا تبدل في كونها شيئًا أحيانًا.

– هذا في تصورك فقط، أما في اعتقادي فكل شيء يمكن تغييره، ويخيل إلي أنك لا تحاولين التغيير، بل بت مستسلمة وراضخة.

– ربما.

– لا ينبغي ذلك لسبب واحد.

– ما هو؟

– إنك إنسانة جديرة بالنجاح، فأنت مجتهدة، صبورة، وسريعة الفهم، هذه الصفات لا ينبغي أن تموت في ذات ما في لحظة قنوط. لا بد أن هناك متاعب وضغوط هنا وهناك، ولكن جميعنا نتعرض لهذه المتاعب والضغوط بصور مختلفة. أنا مثلًا أعيش بعيدًا عن زوجتي التي تعمل في مدينة أخرى، وأضطر أن أقوم بكل شؤون المنزل إضافة لمهام عملي

obeikan.com

اليومية، أواجه مشاكل مستمرة في العمل، في الأسرة وحتى مع الأصدقاء، لكني لا أنطوي على ذاتي وأقرر التخلي عن كل شيء مقابل قضاء الوقت فارغًا أسترجع ذكريات الماضي.

– أنت محق، لكني حقًّا أشعر بالتعب، ولا أريد أن أحملك عبء الأخطاء التي يمكن أن تحدث أو حتى التقصير.

– لا بأس. سأمنحك فترة راحة، ثم تعودين بعدها كما كنت.

– حسنًا.

– أرجو أنني لم أثقل عليك بحديثي.

– أبدًا. أشكرك على هذا الوقت والاهتمام.

– لقد اعتدت القيام بهذا مع جميع من يعمل معي، فنحن بشر ولسنا مجرد آلات حالما تتوقف نلقيها بعيدًا وننسى أمرها.

– هذا لطف منك. أشكرك حقًّا.

– العفو. هل يمكنني أن أطمئن عليك بين وقت وآخر؟

– حسنًا، لا بأس.

– إذًا، اعتن بنفسك. في أمان الله.

– في أمان الله.

أغلقت هاتفي في ذلك اليوم وقد اعترتني الحيرة، هل يمكن لأحدهم

obeikan.com

أن يستقرئ واقع آخر بهذه الدقة دون أن يخالطه عن قرب، وقبل أن تأخذني الأفكار إلى طريق متشعب، قررت تجاهل الأمر تمامًا، فما أهمية تحليل مثل هذه المكالمة، أتراني أعول عليها وأحسبها نداء للعاطفة، وما الذي يريده مني رجل متزوج، أن أرفه عنه بالمحادثة في غياب زوجته العاملة، أم أشغر مكانها أثناء فترات عملها. شعرت بالغثيان وأنا أتخيل ذلك. المهم أنني أنهيت هذه العلاقة- ولو مؤقتًا-، وسأنعم أخيرًا بالحرية من عبء التزام إضافي يدفعني لتلقي الأوامر من رئيسي الصغير. حيث وقعت عيني على ملفه الذي يحوي بياناته الشخصية وأخذني الفضول لمعرفة عمره، وقد عرفت. حيث كان يصغرني بسبع سنين. ويخيل لي الآن أنه وضع ملف بياناته في طريقي عنوة لأحصل بنفسي على تعريف مبدئي لهذه الشخصية.

مضت الأيام تباعًا، وحدث فيها ما لم أرغب في حدوثه، لقد هاتفني بضع مرات، كما كتب لي، وأصبحت متأكدة أنه رجل يفتقد للعاطفة، ويشعر بالحنين لدفء العائلة.

زوجته تحتفظ بطفلتها الصغيرة معها لتعتني بها، بينما يعيش بمفرده كعازب حزين يحدق في الفراغ، ويطارد النوم عند منتصف الليل. إننا تعساء جدًّا، جدًّا، لدرجة أننا نقضي في هذه الحياة كل هذا العمر، ثم نحرم من مجرد رفيق يبدد وحدتنا ويمحو سحائب الصمت التي تغلف أجواءنا المنزوية عن العالم، الثائرة في عتمة الليالي الموحشة. تدق الأيام عظامنا، وتحرق أنفاسنا، وتذيب قلوبنا، وتمتص

طاقتنا، بينما تبخل علينا بمن يهون علينا عنفها الوحشي معنا ويحتوي أوجاعنا.

وهكذا نحن جميعًا كبشر، متزوجون، عزاب، مطلقون، أرامل، معظمنا لم يحصل على ذلك الرفيق الذي يكمله حقًّا، يكمله إلى الحد الذي يستكمل به قوته وشدته على مواجهة الحياة كما يجب، دون أن يكون بحاجة للبكاء في سريره بحرقة طفل جائع لن تسمع أمه نداءه أبدًا أبدًا.

الخامس عشر من يوليو ..

واصلت زياراتي اليومية لـ «هند» طوال أيام العزاء، وفي اليوم الثالث كانت قد تماثلت للتناسي؛ حيث يصعب القطع بإمكانية نسيان أشخاص اقتسموا معنا كعكة الحياة.

أشعر بالسأم.. وأحاول البحث عن شيء يغير روتين يومياتي المرهقة، ليس أمامي سوى أن أسجل دخولي إلى العالم الافتراضي لأتجول في صفحاته بحثًا عن جديد.

لا تزال النكات القديمة تتداول وتحصد ضحكات المتابعين الذين قرؤوها بلا شك عدة مرات، لا تزال تطرح نفس الأسئلة طلبًا لإبداء الرأي الذي لا يغير في الواقع شيئًا، مرة حول الزواج التقليدي والزواج بعد الوقوع في الحب، ومرة عن ترك الهاتف النقال متاحًا للزوجة أو تأمينه لمنعها من تفحصه، ومرة عما تراه الأفضل للفتاة أتراه الزواج أم الدراسة، وهكذا تجتر

الأسئلة اجترارًا لمجرد قطع الوقت أو فتح باب لتبادل أطراف الحديث هربًا من ضغوطات الحياة، وما يؤسف حقًّا أننا وصلنا إلى الحد الذي توقفت فيه عقولنا عن مجرد ابتداع أسئلة تصلح للنقاش.

تركت صفحة موقع التواصل الاجتماعي التي أصابتني بالملل ورحت أتفقد موقع الصحيفة التي أدون فيها مقالاتي، وهناك استوقفني عنوان خبر يقول: عشرينية تنتحر حرقًا بالبنزين بعد فسخ خطبتها.

إنه عنوان مثير لمن يتأمل قضية الزواج في مجتمع عربي محافظ، والسؤال الملح هنا يقول: إذا كانت تلك الفتاة قد وصلت إلى منتهى القنوط لمجرد إفساد ارتباطها ممن رضيته أو حتى بسبب الاستيلاء على حقوقها كما ذكر ت تفاصيل الخبر، فما تراها تفعل من تجاوزت ذلك العمر بعقد أو عقدين. إننا ببساطة نتصرف حسبما يبنيه تصورنا، ومعظم تصوراتنا لا تمت إلى الواقع بشيء فتقودنا إلى الهاوية.

الواحدة وعشرون دقيقة..

في الليل.. وعند السكون، تستيقظ الأفكار، تحوم الأحلام، تنتشر الآلام، فيصيبنا القلق والأرق، نفكر ونفكر، نسوي بعض الحسابات ذهنيًّا، ونستعد لأخرى، ولذلك، وعلى ما يبدو، قررنا فجأة ألا ننام، وأن ننتفض على الليل فنمضيه مستيقظين، نعمل، نبحث، نتناقش، نتسامر، نقوم بأي

شيء إلا أن ننام. فحيث تلك اللحظة ستبدأ المعاناة التي نتوقاها.

وبعيدًا عن ذلك الخطأ الذي نقترفه حين نفعل ذلك، فإننا بذلك نعترف في ممارسته ضمنا أننا ضعفاء جدًّا بالقدر الذي نعجز فيه عن الإذعان لسننه.

تفحصت هاتفي وأخذت أعيد قراءة تلك الرسالة المختصرة «هل أنتِ بخير» إنها تعني الكثير لمن مثلي، الاهتمام، القلق، الرغبة في المساعدة، وربما الحاجة!

ولكن.. هل لمن مثلي أن تنساق خلف علاقة تملؤها الثغرات الكافية لانهيارها فجأة.

الزوجة الثانية، اختلاف العمر، وجود طفلة، اختلاف الثقافات والعادات، وأيضًا الأهم من كل ذلك.. اختلاف الفكر !

إنه شاب كمعظم شباب هذا العصر، يتطلع لتجربة كل شيء، يبدو من أولئك الذين يفسرون المدنية والحداثة بالرقص والسفر والشرب ومخالطة النساء. وبالتالي فهو عرضة للوقوع في الحب في أية لحظة، وأعني الحب بمفهوم الحمقى التي استطاعت وسائل الإعلام ترسيخ صورته في رؤوسهم بالمغازلة والفراش، وحيث تلك اللحظات من الضعف يمكن أن تخسر أحدهم إلى الأبد. لذلك أدرك تمامًا أني أعيش في مأزق لا نهائي؛ حيث تتسرب هذه الأفكار المتعفنة في رؤوس الرجال والنساء بمختلف

أعمارهم يومًا بعد آخر، بحيث لم أعد أحمل أملًا في مصادفة رجعي مثلي يؤمن بالمبادئ والقيم، وأهمية وضع الأمور في نصابها لتحقيق العدالة.

نعم العدالة.. فهي ليست مختزلة في أروقة المحاكم وقاعات القضاء، إنها في معاملاتنا اليومية، في مشاعرنا ومواقفنا المنصفة من كل شيء، في أخذ حصتنا من حقوقنا وترك البقية للآخرين إيمانًا بحقوقهم أيضًا، لكن ما يجري الآن يختلف تمامًا، إننا في حالة سعار، الجميع يريد كل شيء، حتى ما لا يستحق، حتى ما لا يحتاج، المهم أن يحصل على كل شيء، وليذهب الآخرون إلى الجحيم!

إنني في سباق مع الزمن، وهذا أفظع شعور يمكن التعايش معه، حين تجد الوقت قد داهمك بينما لم تنجز الكثير مما كان ينبغي عليك إنجازه خلال الوقت المنصرم، لو لم يدركني هذا الشيء لما استطعت أن أشعر به بهذه القوة الآن، وكأنه شخص آخر يسابقني نحو المجهول ويرغمني على الاستمرار في الركض ولو لم أكن راغبة.!

الوقت.. آه. نعم الوقت، إنه اللغز الذي يختزل الحياة ببساطة، إنه الحقيقة التي نجهلها، والإكسير الذي نظل نهدره دون أن نقدر ثمنه إلا عندما يجف معينه، ويوشك على النفاذ.

اضطجعت في فراشي وأخذت أتفحص بمخيلتي قصص صديقاتي،

«هند» التي تبقت لي لتشاركني رحلة الوحدة، لا شك أنها الآن أكثر حاجة لمن يقف بجوارها ويخفف من آلامها، ومن تراه يفعل بحق، فالأمهات حين يكبرن وتتقدم بهن السنون، يصبحن باردات في كل شيء، حتى في استشعار مواجع الأبناء. وإنني لألتمس لهن العذر حقًّا، فقد واصلن العطاء لأعوام طويلة، والآن، يبدو أن أوجاع الشيخوخة ومخاوفها تلقي بظلالها عليهن، فتحجب عنهن معاناة الأبناء، إن للعطاء قانونًا، فعند كل مجموعة من السنوات يفترض أن يتولى تقديمه شخص ما، وغياب الشخص الآخر هو ما يزيد عبء الأول الذي يضطر للقيام بدوره حتى وصوله، ولكن ماذا لو لم يصل، ماذا لو قرر عدم الحضور، ثم ماذا لو انهار الأول وأدركه الأجل؟!

من يقوم بالأدوار الضائعة في حياتنا، من تراه يفعل، وهذا السؤال الذي يدفعنا للتشتت والضياع، هو نفسه الذي ألقى بـ«منال» في طريق زوجها، أو.. أ ر م ل ه ا.. يا إلهي!

إنني قوية.. قوية بما يكفي لتحدي الحياة، لكني لست كذلك بالنسبة لطعناتها المتمثلة في الفقد، في التخلي، في الإبعاد، في التوجس والريبة.

أذكر مثلًا أنني ذات مرة، تخليت عن أفكاري الصعبة، وقررت الاتصال بإحدى صديقاتي المحببات إلى نفسي وكانت قد تزوجت، تذكرت في إحدى الليالي المغرقة في التفكير أن مواقف جميلة جمعتني بها، وخيل إلي أنها كانت من أقرب صديقاتي إلي في إحدى المراحل

الدراسية، وهكذا كنت أبحث عنها في كل وقت طرأت فيه على ذاكرتي، ورحت أفتش وأفتش حتى وجدت صفحتها على إحدى مواقع التواصل الاجتماعي، كانت قد أصبحت طبيبة، وأمًّا لثلاثة أطفال، أخذت أتصفح صورها ويومياتها، وأقرأ تعليقاتها اللطيفة وردودها الرقيقة وشعرت أنها ما زالت كما هي، ببساطتها، وعفويتها، وابتسامتها البريئة.

لقد كانت متحمسة جدًّا حين عرفتها بنفسي وأخذنا نسترجع بعض الذكريات من خلال الدردشة الكتابية، ثم قررنا اللقاء، وهناك في مقهى يتوسط المدينة ويبيع المشروبات وبعض الحلوى التقينا ولم نجد صعوبة في التعرف على بعضنا البعض، فلا أنا تغيرت كثيرًا ولا هي. اختلفت ملامحها التي أحفظها جيدًا.

كنت أشرب الشاي بالزهور بينما راحت تحرك السكر في فنجان القهوة بالكريما وهي تتفقد هاتفها، وتمده إلي أحيانًا لأرى صورًا لأطفالها وبعض الفيديوهات الظريفة لهم وهم يغنون أو يفرقعون البالونات، مرت دقائق من الحوار الممتع حتى ألقت علي سؤالًا عرضيًّا عن أطفالي وأجبتها أنني لم أتزوج بعد!

ما زلت أراها أمامي وهي تبتلع دهشتها، ثم تؤدي ذلك الدور المكرور لكل من أصبح عليها مواساة عانس ببعض كلمات عن النصيب ومتاعب الزواج والأبناء وجمال الحرية لتخفف عنها، وغني عن القول أنه كان اللقاء الأخير !

أفهم منطقها كزوجة تخشى على زوجها من صديقتها التي قد تتطلع إلى سعادتها بشيء من الغيرة؛ فترغب أن تستحوذ عليها وإن كان ذلك على حساب الصداقة والذكريات الجميلة، وفوق أنقاض بيتها المتهدم بمعول أنانيتها واحتياجاتها الشخصية. هذا للأسف تفكير معظم المتزوجات بالنسبة لصديقاتهن وقريباتهن العوانس.

ها أنذا أذكر كلمة عانس وعوانس دونما تحفظ، وإن كنت لا أستمرئ هذا اللفظ المهين، إلا أننا ملزمون بصورة ما أن نطلق الأسماء المتعارف عليها على مسمياتها شئنا أم أبينا، أما بالنسبة لي فلا أحبذ إطلاق الألقاب أبدًا، كما أستقذر هذا اللفظ الذي يشوه صورة الأنثى الحية، التي تحملها الحياة على الأمل والعطاء، ففي بقع من هذا العالم الواسع لا يقتل الأنثى لقب يتلذذ بلفظه الكارهون وذوي الضغينة، هناك يمكنها أن تحب وتتزوج وهي في أرذل العمر – لأنهم يؤمنون أن الحب حق وليس مجرد مرحلة – يمكنها أن تعيش وتمارس هواياتها المندثرة مجددًا متى أرادت دونما سخرية، وهذا هو حقنا جميعًا في الحياة، إلا أن الضغوط التي تخلقها عادات ما تدفع أفرادها إلى البحث عن متنفس لها عن طريق تفريغ شحنائهم بصورة ألفاظ مؤذية، أو تعليقات ساخرة، أو عبارات جارحة، وإلا تفجروا كمدًا!

التاسعة وخمس وعشرون دقيقة..

أعود إلى «ماجد»، الحلم المتبدد مؤخرًا، وما أقسى الأحلام التي تذهب مع الريح في خريف العمر، كثيرًا ما جادلت نفسي بشأنه، فكلما حاول التودد إلي أظهرت البرود، وكلما جرب التقرب مني ابتعدت، في داخلي كنت أحترق رغم ما أبديه من واجهة جليد قاسية، ذكرت نفسي مرارًا بالوقت الذي يسابقني للنهاية، تذكرت حقي في الحب والأمومة، حقي في لقاء الآخرين دون توجس من سماع كلمات مؤذية تهين أنوثتي، وتشكك في صلاحيتي للحياة، أنظر إلى الممثلات والمشاهير فلا أجد أحدًا يطلق على فنانة أو مغنية لقب عانس، وأسأل نفسي، هل يحتاج المجتمع إلى أنثى ماجنة؛ كي يتوقف عن نعتها بالعانس ويحترم كيانها وشعورها؟!

أذكر أنني لجأت إلى «هند» لأحدثها عن «ماجد»، لعلها ترشدني إلى موقف واضح منه، فالوقت يمضي، وبات يشعر أني لا أكترث له، كما أن فرصي في الأمومة تقل كلما تقدم بي العمر، ولا أعلم حقًّا لم أصبحت أنظر إلى نفسي بنظرة المجتمع القاسية، وأنا لا أزال أعبر الثلاثين، أحيانًا أتذكر جارتنا العجوز عندما ظلت تنجب رغم تخطيها الخمسين، وتمر في رأسي وجوه نساء أنجبن في سن متأخرة، ثم أعود لأسأل نفسي أيهما أهم، أن أصبح أمًّا، أو أحصل على شريك حياة، رجل يكملني ويتمم ذاتي، يمنحني الحب والدفء الذي لم أشعر به يومًا أم أطفال يكملون مسيرتي في الحياة.

العاشرة والنصف صباحًا..

قالت لي «هند» ذات مرة في معرض حديثنا عن الحب والزواج، أنني محظوظة بهذا الخواء، حيث علمتني قسوة الحياة أن أعتمد على ذاتي ولا أعلق أهدافي بأحد، ولذلك لم تصادفني الخيبة، ولم أتألم كغيري للتخلي، ربما لم تكن تعلم أن الخيبة والتخلي لا تحتاجان لأن نعلق من أجلهما آمالًا، فأحيانًا تتمثلان في غياب واجب أو انتقاص حق!

لم تفلح «هند» في إقناعي بالزواج من «ماجد»، وكأنما كان حواري معها لمجرد قطع الوقت، بالرغم من حرصي على الحصول ولو للحظة على مبرر كاف يقنعني للزواج من رجل قد يعود إلى زوجته في أي وقت وقد اكتفى من لحظات التغيير التي قضاها مع امرأة يزحف بها العمر نحو النهاية سالبًا منها زهرة الشباب، ورونق الحياة ونضارتها.

قلت لها: أشعر أن الشيب تسلل إلى قلبي، قبل أن يداهم بقيتي، لم أعد أحتاج إلى حب عادي، بل إلى أكثر بكثير من الحب، مزيج من العناية والاهتمام والتضحية والتغاضي، كلما كبرت أشعر وكأني أعود طفلة أصغر وأصغر، طفلة بكل احتياجاتها للأمان والحنان والعطف والحماية، فأنا أنتفض لأنوثتي حين تمس ولو سهوًا، وأفظع ما يمكن أن يمسها هو التشكيك بوجودها بأية صورة كانت، بازدراء الذوق، بالتحسر على الماضي، أو التطلع إلى أنثى أصغر.

تلك مجموعة من الحقائق التي تخشى كثير من الإناث الاعتراف

بها أو الحديث عنها، وتحفظها في خزانة المحظورات بلا أدنى تردد. ثم تبدأ في تجميل مظهرها بالمزيد من المساحيق، أو الإسراف في العناية بالبشرة، والتهام الفيتامينات في محاولة يائسة للحفاظ على ما تبقى من ضوء الشباب.

لقد أخبرتني أن الأمل سيظل موجودًا متى أردناه، فالحياة تتطور، ووسائل الطب والتجميل تقدم الجديد باستمرار، وهناك حالات كثيرة نجحت في الحصول على حب حياتها وأنجبت بعد الأربعين؛ ولذلك ما زال أمامي بعض الوقت وعلي ألا أهدره. أتراها كانت تواسيني أم تواسي نفسها.

السادسة والربع مساء..

إنني في صراع بين ما يفرضه علي الواقع وبين احتياجاتي العاطفية، وبين موقفي من هذا الرجل الذي يصغرني، فعندما يزحف علي خريف العمر يكون هو لا يزال في فورة شبابه وقوته، وعندها لن يصبح أمامي سوى التخلي عن كبريائي وقلبي وتركه يرحل عني؛ ليستكمل حياته مع غيري أو يعود لزوجته فهي على الأقل أصغر مني عمرًا.

قالت لي «هند» وهي تحاول إقناعي بعدم أهمية الفارق العمري بيننا أن الرجل قد يفضل من هي أكبر منه سنًّا ليحصل على المزيد من الحنان حيث تمثل له الزوجة والأم معًا، فضحكت في نفسي لأني أفهم هذا جيدًا، ولكن.. غالبًا من يبحث عن زوجة تكبره عمرًا لا يخرج عن اثنين، إما

رجل يبحث عن زوجة تقود حياته ولذلك فلن يكتفي بزيادة العمر بل أيضًا سيحتاج إلى زيادة الخبرة وطول التجارب والقوة أيضًا؛ ليشعر في كنفها وكأنه طفلها المدلل الذي تتولى حمايته وتخلصه من المآزق والأزمات. أما الآخر فهو من يختارها ليخضعها تحت عبء الجميل الذي يتمثل في تضحيته بزوجة أصغر عمرًا واختيارها؛ لتكون أكثر طواعية تقديرًا لتلك التضحية. وبالنسبة لي فلست الأولى ولا يمكنني أن أكون الثانية. لقد احتملت بما فيه الكفاية ولا يمكنني احتمال المزيد.

ويبدو أنني قضيت وقتًا أطول مما ينبغي في التفكير بحيث اجتاحه الملل، وتسرب إلى نفسه اليأس، فأغلق وسيلة التواصل بيننا وعاد إلى زوجته التي حصلت على إجازتها السنوية وعادت بشوقها الجامح إليه.

هكذا تنتهي الأمور عادة حين لا نحاول اعتبارها فرصة ونجتهد في محاولة اقتناصها، وإنني للأسف لا أحبذ دور الصياد ولا أبحث عن فريسة، إنني أبحث عن حب حقيقي مستمر، لا ينتهي في لحظة ما، أو يتبدد عند مناسبة.

أدركت فيما بعد أنني أضعت منحة قد تكون أخيرة في حياتي، وبكيت لا أعلم آنذاك إن كنت أبكي لضياعها أم لأنني أحببته حقًّا وتعلقت به، لكني أحسنت إلى نفسي حين لم أكن أحتفظ بشيء مما يكتبه لي أو يرسله إلي، فيعيدني إلى تلك الأيام ويتركني أذوب تحت رحى ذكرياتنا.

مر الوقت، وظننت أنني سلوته، بل منحت قلبي حرية الوقوع في الحب حالمًا أجد بديلًا، وربما قدمت لنفسي تلك الهدية لأواسيها وأخفف عنها ألم الفقد بينما أدرك أنها لن تجد بديلًا هكذا ببساطة، خاصة وأني لا أسير في طريق المصادفات العاطفية، ومن المستحيل أن يهبط من السماء حبيب من أجلي، حيث لم تحدث تلك المعجزة عندما كنت أشع صحة ونضارة فما الذي يحملها لتحدث الآن.

اليأس والقنوط يقدم فوائده أحيانًا إليك ليجعلك تمزق بهدوء صلاتك ببعض الأحلام، أو الأفكار أو البشر الذين يصبحون مصدر ألم عظيم في حياتك، ولا يعود من دواء لهذا المصاب سوى نسيانهم، وكذلك منحني اليأس من نفسي ومن ظروفي وأفكاري ومخاوفي تلك المقدرة على طي صفحة «ماجد» وتركه يستكمل حياته مع زوجته بسلام.

إنني أتساءل أحيانًا كيف استطعت أن أكون تلك الأنثى المغوية لأحدهم، الهاجس لزوجته التي تشعر حتمًا بوجودها كلما لاحظت شرود زوجها، أو انشغاله بهاتفه، أو حرصه على الحديث فيه بعيدًا عن مسمعها، لا شك أنه دور قذر دنيء، إلا أنني وقعت فيه دون ترتيب، لم أخطط لإيقاعه أو خطفه، وكنت أبصق على نفسي أحيانًا كلما زاد اقترابًا مني وظنني بت ملجأه من الحياة.

حقًّا. ليس لدينا من سلطة على الحب، لكن يمكننا أن نؤذيه ونستمر في مقاومته حتى يرحل، وهذه المهمة لم تعد صعبة الآن؛ حيث الفتيات

بالآلاف حول العالم في حالة بحث وترقب واستعداد للوقوع في الحب دون أدنى تفكير أو ذرة ندم.

قد أكون متفردة في تأنيب الضمير، فما من أحد يمكن أن يلوم نفسه على منحة الحب مثلي، معظم الناس يلتقطون حصتهم ويمضون في الاستمتاع بلا تفكير أو تحليل أو محاولة تبادل الأدوار مع الآخرين لتقييم مشاعرهم وقياس درجة آلامهم التي افترض أنني واحدة من أسبابها شئت أم أبيت. لا أحد يفعل هذا، ولذلك فأنا وحدي من أخسر، ووحدي من أتوجع.

الثانية وثلاثة عشر دقيقة ظهرًا..

كثيرًا ما ضحكت في نفسي كلما تذكرت لقبي الذي أطلقته على «هند» حين حدثتها عن «ماجد» «صنم»، فأنا بحسب وجهة نظرها جامدة بلا شعور في شؤون العاطفة، قاسية إلى الحد الذي يجعلني قادرة على رفض الحب- أعظم احتياجاتي في هذا العالم- بكل برود، ودون أدنى تردد.

أتراني صنم حقًّا، بالطبع لست كذلك ولكن ربما دفعتني مثاليتي المبالغة لأبدو بهذا المظهر في تصور البعض، وجعلتني أقسو حتى على ذاتي التي هي أحوج إلي من الجميع. فحين ينصرفون، ويبتعدون، وينسون، ويتشاغلون، ينبغي أن أظل معي، وأحبني، وأعتني بي، وأعطف عليّ. إلا أنني لا أفعل، ويأخذني الإنصاف إلى الاقتصاص مني ومحاكمتي بعنف.

إنه الآن يعود ليسأل عني، وقد مضت مني عدة أشهر، استنزفت مني الكثير

من ساعات التوجع والبكاء ولحظات الندم، وجلسات المصارحة الذاتية، والمحاكمة المستبدة، والكثير من الاحتيال على الذات، لكني في قرارة نفسي أشعر بالفخر لأنني منحته الخيبة التي أرغمته على العودة إلى عشه وتقبل حياته والعناية بطفلته، فما كان يمكن أن يحدث لو اقتحمته، يبدأ الشقاق والتبرم والخلاف والتمزق، فهل أحببته أكثر، إلى الحد الذي يجعلني أتناسى حقي واحتياجي ورغبتي من هذا العالم، لأحافظ على تماسك حياته. لم أعد أعرف!

أتراني بعد كل هذا الوقت من المكابدة لطي صفحته من حياتي أضعف وأستجيب إليه فأعود، أتراه يسأل عني الآن لحاجة يطلبها وينبغي علي الرد والمساعدة، أم يحاول تجديد الأمل فينبغي أن أتماسك وأدع الباب موصدًا دونه. لقد أحببته حقًّا، لكنه ليس لي.

إنني أغلق الباب دوني في واقع الأمر، فكل من يمكن أن يظهر من بعده لن يكون أفضل حالًا منه، وعلي القبول بحياة مشتركة مع امرأة أخرى أو اقتات الوحدة حتى أموت، هذا ما يمليه المنطق المجتمعي، حيث لا حق لي أن أحلم برجل لي وحدي، وحب كامل غير منقوص، وكأنني ضيعت بيدي فرصي في الحب والزواج فيما مضى من العمر وبات حريًّا بي أن أتقبل إملاءات القدر كفتاة عانس.

بالنسبة للرجل، يمكنه اختيار الفتاة التي يظنها الأنسب إليه من بين عشرات الفتيات دون أدنى ممانعة من المجتمع، فهو يمارس حقه في اختيار من تشاركه الحياة وتنجب له الأبناء، وتحافظ على بيته وسمعته،

لكن بالنسبة للفتاة، فمجرد رفضها لرجل لا يناسب تطلعاتها واحتياجاتها يعد أمرًا فظيعًا، وتصرفًا يحمل المجتمع بأسره على مقاطعتها لتأديبها جرَّاء فعله، إنها مجرد شيء وليس كيان، فهي سلعة للاستعمال فقط، وليس من حق السلعة أن تتخير مشتريها، بل يجب أن تستمتع بهذه الصفقة لأنها ستغادر رفوف المتجر إلى موقع آخر استعدادًا للاستهلاك. يا للتعاسة!

ليس هذا كل شيء، فعواصف الأفكار التي تعيث في رؤوس فتيات مثلي لا تنتهي، ومثل هذا النوع من الأفكار يزداد حدة كلما زادت الحاجة إلى الصمت، إنها المحاولة العصيبة للخروج من دوامة صراع فكري رهيب، تصطدم فيه حقوقنا الإنسانية مع نظرة مجتمع لا يرضى أبدًا.

المزيد من هذه المساجلات مع ذاتي كل ليلة، قضيتها قبل معرفته، وأثناءها، وبعدها، ماذا أريد حقًّا أمام خيارات شحيحة، لا تلبي أبسط رغباتي، لا تمنحني كفايتي، لا أحد يفهم أبدًا معنى ألا يكون من حقي العيش مع رجل لي فقط، وأي أمل هذا في بحر هائج من مواقع التعارف، وبرامج المواعدة، وفتيات الطرق اللاتي اقتنعن بصورة ما أن من الفطنة تدارك لحظات الشباب في مواعيد آثمة، وهدايا سرعان ما تندثر في عصر السرعة، وزيادة الشره.

إنني بحاجة إلى صدفة جديدة، وإلى شهور إضافية لأتعرف بوجه جديد صالح للحب، فكم تبقى لي من الوقت لأفعل قبل أن يهزمني العمر. لم يتبق الكثير!

هذا المخاض النفسي اللا متناهي لتدوين قضية مؤرقة في حياتي،

سيكون محط ترفيه للبعض في لحظات فراغ، وهكذا هي أوجاعنا بالنسبة للآخرين، ليست سوى مادة لقضاء الوقت، ووحدنا من يعتصر.

أنا الصنم كما تراني «هند»، أو لوح الثلج كما وصفتني «منى»، أو الرجل الآلي كما تصورني «ماجد» في إحدى اتصالاته المعدودة، وقد أصاب في تصوره حقًّا، لقد حولتني القواعد والواجبات والدروس والمؤلفات إلى مجرد عقل بلا قلب، لقد قتلت قلبي لأنصف مني الناس. وكثيرًا ما قيل لي أن علي أن أتخلى عن عقلي لأترك قلبي يعيش، بعدما أصبح أشبه بخازن في جهنم لا يفتأ عن إبقائه يصطلي في قعر الجحيم.

مرت الأيام تباعًا، وقد قررت تجاهل رسالة «ماجد»، وقلت في نفسي ساخرة: وإن لم أكن بخير فماذا سيفعل على كل حال».

ما زلت أتابع أخبار الطائرة التي اختفت وأخفت معها توأمتي الغريبة دون أن تظهر أية بوادر يتجدد معها الأمل في ظهورها، ما زلت أتابع البحث عن صديقات الدراسة، أدردش مع «منى» أحيانًا، وأحادث «هند» باستمرار، لقد أصبَحَت الآن بخير، وحكت لي قصة شقيقتها الراحلة، فقد كانت تصغرها بسنوات، إلا أنها ظلت تخشى من العنوسة، وتخاف أن تحمل اللقب كأختها «هند»؛ ولذلك فقد بذلت الكثير من الجهد لإيقاع شقيق صديقتها في غرامها دون اعتبار لأي شيء يمكن أن يفسد ارتباطًا كذلك، وبعد إصرارها على الزواج رغم ممانعة أسرتها، لم تستطع أن تحصل على السعادة في حياتها، فالزوج ظل

يمارس هواية تصيد الفتيات، وهي باتت تخشى لقب مطلقة، وبعد وقت لم يعد متنفسها للخروج من تلك المعاناة سوى تناول الطعام، فزاد وزنها، وراح زوجها يزدري مظهرها معبرًا عن مقته لما آل إليه، فراحت تمارس حمية قاسية، وتمتنع عن الطعام لساعات طويلة، حتى أدركها الهزال وضعفت وظائف جسدها، ولم تعد تتقبل طعامًا أو شرابًا، وسرعان ما تلفظه، فلم يكن بوسع زوجها سوى أخذها إلى الخارج للعلاج بناء على توجيه طبيبها الخاص ظنًّا منه أن ذلك قد يرفع من معنوياتها فتتحسن وتستجيب للعلاج، إلا أن غياب زوجها طوال الوقت للتنزه أو حتى البحث عن متبرعين للدم من أجل إنقاذها لم يزدها سوى يأسًا وقنوطًا، وظلت حالتها في ترد حتى قضى عليها الموت.

إنها الخامسة مساء الثاني من أغسطس

منذ ساعتين وأنا أحاول معالجة الاتصال بشبكة الإنترنت الذي توقف كعادته المقيتة، وها هو يعود أخيرًا؛ ليبدأ هاتفي باستلام الرسائل والمحادثات المتراكمة خلال الوقت المنصرم. أشعر بالفضول ككل مرة مماثلة لمعرفة ما قد حدث، روابط أخبار محلية جديدة، تعليقات على مشاركات سابقة، رسائل بريد تلقائية وغير هامة، طلبات إضافة على مواقع التواصل الاجتماعي. لم يتبق لي سوى فحص برنامج المحادثة الخاص بهاتفي وها هو يحمل رسالة من ود، إحدى صديقات الجامعة، وهي فتاة تماثلني سنًّا، خجولة هادئة وودودة، تمامًا كاسمها، كانت أقرب صديقات المجموعة إلي، وقد استمر تواصلنا بعد

الانتهاء من الدراسة حتى وقت قريب عرفت من خلاله أنها تزوجت وأنجبت ولدًا، وهكذا لم أعد أرى في تواصلي معها جدوى، فقد افترقت بيننا الطرق، وواصلت دراستي بينما اختارت هي الأمومة.

في الحقيقة لم تكن علاقتي بود قوية إلى حد تبادل الأسرار والحديث في شئوننا الخاصة، ولطالما شعرت بالدهشة كلما وجدتها تتصل بي لتسألني عن أحوالي وأحوال أسرتي، وما إذا كنت قد تزوجت، وأسئلة أخرى لا أتوقع أن تطرحها علي، ولا أعلم إن كان تواصلي الشحيح مع الآخرين والحدود التي أفرضها في علاقاتي قد حولتني إلى شخصية مستوحشة غريبة الأطوار لا تتوقع لطف الآخرين ولا تحبذ اقترابهم بشدة.

على أية حال.. ها هي رسالتها الودودة تدهشني مجددًا:

- كيف حالك يا «أمل»، هل نسيتني؟

- أهلًا عزيزتي «ودّ». كيف حالك أيتها الجميلة؟، بالطبع لم أنساكِ.

- الحمد لله أنا بخير، كيف حال أسرتك؟، وأين أنت؟

- الحمد لله جميعهم بخير، وأنا معك الآن.

- لم تحدثيني منذ مدة.

- آسفة حقًّا. لقد انشغلت كثيرًا خلال الفترة الماضية.

- ماذا!، هل تزوجت؟!

– كلا. أعني الدراسة وبعض الظروف المرهقة. كيف حال ابنك الصغير؟

– إنه بخير، لقد أصبح الآن في المرحلة التمهيدية، وأصبح له أخت تبلغ عشرة أشهر.

– بارك الله فيهما.

– دعينا نراك يا «أمل»، بقية الزميلات يرسلن إليك التحية.

– هل ما زلت على اتصال بهن.

– نعم، لقد التقينا منذ شهر في حفل زفاف هناء وربما تهاجر إلى زوجها خلال أسبوعين، «سلمى» أنجبت ولدًا منذ أسبوع، أما «ماجدة» و«علياء»، فلم تتزوجا بعد.

– فليوفقهن الله.

– نريد أن نراك، أخبريني هل تغيرت؟

– نعم، لقد أصبحت عجوزًا.

– دعينا نلتقي يوم الخميس القادم، سوف نذهب لنبارك لسلمى بمولودها، تعالي يا فتاة لنبحث لك عن عريس.

– حسنًا، سوف أفكر في الأمر وأخبرك.

– كما تريدين، ولكننا في شوق لرؤيتك، إنك الوحيدة التي لم نلتقيها منذ تخرجنا من الجامعة.

– أنا أيضًا في شوق لرؤيتكن، ولكني أمر بالتزامات كثيرة هذه الفترة، سأحاول ترتيب جدولي وأخبرك إن كان باستطاعتي الحضور.

– سوف أكون بانتظارك.

– إن شاء الله.

– في أمان الله يا «أمل».

– في أمان الله.

أحيانًا ندرك لاحقًا كم يكمن في الأقدار السيئة من خير، على الأقل إنني أفهم هذا الآن، فماذا لو ظل الاتصال معطلًا لوقت أطول، لعدة أيام مثلًا تكفي لتجاوز الموعد الذي أخبرتني به «ودّ» قبل قليل حتى لا أكون بحاجة إلى تقديم أعذار واهية، أو أبدو كمتهربة أو حتى رافضة للفكرة الحقيقية التي دعيت لأجلها.

وتساءلت.. أترى الأقدار تسوق لي الأفضل، تمنحني فرصة أخرى للخروج من زحمة الأفكار، وطوق الحيرة الخانق، أتراها أشفقت علي أخيرًا، وقررت مصالحتي بهذه الدعوة إلى الحياة. ومن تراها من الزميلات تود رؤيتي حقًّا لترى مدى ملائمتي للعريس المرتقب. هل أرضخ لحكم القدر وأتزوج رجلًا يختاره لي الآخرون بعدما عشت على أمل اللقاء، برجل يختارني بنفسه.

هل كنت حمقاء إذ صدقت خرافة الحب قبل الزواج فأضعت عمري بانتظارها، أم أن الزواج لا يحتاج إلى مغامرات عاطفية أو معرفة سابقة لينجح ويؤتي ثماره. إنها القضية التي لا يمكن القطع فيها أبدًا، فكما توجد زيجات

ناجحة لم تسبقها معرفة أو علاقة عاطفية، توجد أخرى فاشلة أيضًا، وفي المقابل يظهر الأمر ذاته بالنسبة للزيجات التي سبقتها قصص حب عاصفة، فلا هي نجحت جميعًا ولا هي فشلت جميعًا. ويبدو أن هناك سببًا جوهريًّا لنجاح الزواج أو فشله لا يمت بصلة إلى الحب فماذا يكون يا ترى؟!

أمسكت جهاز التحكم بالتلفاز وأخذت أقلب في قنواته بحثًا عن شيء يسترعي اهتمامي، ثم توقفت أمام مشهد في مسلسل عربي لامرأة تصارع المخاض، لم يكن مشهدًا معتادًا للحظة مخاض، بدا مفصلًا ودقيقًا إلى الحد الذي جعلني أستشعر حالة المعاناة والألم التي تمر بها المرأة، بدت لي اللحظة وكأنها لحظة نزال مع الموت، فإما الانتصار واستعادة الحياة أو خسارتها إلى الأبد. أترى تستحق الحياة منا هذا التحدي، وما الذي يجعل مشهدًا كهذا يستوقفني، هل أردت تخيل اللحظات التي عاشتها صديقاتي الأمهات، أم أردت استشراف حياتي فيما لو أصبحت زوجة وبات لزامًا علي أن أخوض هذه التجربة المخيفة، أتراني أملك القوة الجسدية والنفسية لتحملها، لقد أصبحت مؤخرًا سريعة الخور، أشعر أني فقدت طاقتي، وكيف لا وهذه الوحدة تأكلني وتزيدني خواء وهشاشة.

الحب ليس جرعة إضافية تجمل الحياة كما تظهرها قنوات الإعلام المختلفة، إنه السر الذي يكمن في جنبات حياتنا ليملأنا حماسًا وإقبالًا وعزمًا على تحملها ومقارعة صعابها والرغبة في استكمال مسيرتنا فيها حتى النهاية.

إنني لا أزال أدور في حلقتي المفرغة، وأنا أسأل نفسي، هل أعيش كما أريد أنا وأحتمل الحياة بمفردي إلى مالا نهاية، أم أعيش كما يريد المجتمع فأفعل مثلما فعلت «منال»، ثم أتكبد وحدي تبعات الاختيار الذي قرره عرف المجتمع، هل أقبل دعوة ود للالتقاء برفيقات الجامعة من أجل أن يقيِّمن مدى ملائمتي للعريس الذي لا أعلم عنه شيئًا، فماذا لو اقتنعن بمظهري بعد هذه السنوات ولم يقنعني هو.

نحن ندرك تمامًا أن الحق لنا في الاختيار والقرار، فهذه هي الحرية الحقة، غير أن أناسًا غيرنا يشاركون متطفلين في تحديد مسار قراراتنا بصورة أو أخرى، نحاول دائمًا أن نزن الأمور كما نراها ونعتقدها، إلا أنهم يحاولون بشتى الطرق إلزامنا بتبني آرائهم، ثم لا يدفع الثمن سوانا. فنحن لا نراهم في الأزمات إلا متفرجين أو مسرورين بالتشفي.

ما زلت أتشبث بموقفي من قضيتي، لكني أفهم تمامًا حجم الضريبة التي سأدفعها طوال الوقت من روحي وعقلي وقلبي، إلا أنني أختار ما يتفق مع ضميري ويلائم نفسي، ولا أقبل ما تمليه الظروف ليس مكابرة ولا تحد وإنما إيمانًا بأهمية الاقتناع قبل اتخاذ أي قرار.

خاتمة..

إنني أحلم بذلك اليوم الذي يحق لنا فيه أن نقرر ونعيش دونما قهر، دونما انتقام، دونما ضرائب مرهقة، ودونما ألقاب تقلص مدى صلاحيتنا للحياة وترغمنا أن نموت مبكرًا.

obeikan.com

نبذة عن الكاتبة..

- تخرجت من كلية العلوم الإدارية عام 2009م
- حصلت على العديد من الشهادات في التدريب والتنمية البشرية والإدارية.
- حاصلة على الرخصة الدولية في الاستشارات الاجتماعية.
- حاصلة على الدبلوم في الذكاء العاطفي.
- حاصلة على دبلوم المستشار القيادي.
- حاصلة على درجة أخصائي في الجرافوثيربي.
- حاصلة على درجة ممارس في الهندسة النفسية.
- رشحت للانخراط في برنامج تدريبي للصحافة الرقمية في العالم العربي برعاية اليونسكو والاتحاد الأوروبي.
- شاركت بكتابة المقالات الاجتماعية في عدة صحف ورقية وإلكترونية.
- شاركت بحضور عدد من الدورات في العمل التطوعي والصحة النفسية وفنون الإلقاء.

obeikan.com